من هم آباء الكنيسة

الراهب سارافيم البرموسي

نسخة إلكترونية

Αθανασιος
ὁ Πατὴρ τῆς ὀρθοδοζίας

أثناسيوس
أبّ الأرثوذكسيّة

هو أعطَى البعض أنْ يكونوا رسلاً

والبعض أنبياءَ

والبعض مُبشِّرين

والبعض رعاةً ومُعلِّمينَ

لأجل تكميل القدِّيسين،

لعمل الخدمة،

لبنيان جسد المسيح

إلى أنْ ننتهي جميعنا إلى وحدانيَّة الإيمانِ

ومعرفةِ ابن الله

إلَى إنسانٍ كامل

إلى قياس قامة ملْء المسيح

القديس بولس

(الرسالة إلى أهل أفسس ٤: ١١ ـ ١٤)

مدخل

إنّ العصر الحديث بقيمه الإنتاجيّة الاستهلاكيّة وبسرعته اللاّهثة وراء كلّ ما هو جديد، حينما يتوقّف أمام آباء الكنيسة نجده يرمقهم بنظرة تمتزج فيها الحيرة مع التعالي تحت مظلّة ضبابيّة من عدم الفهم والشعور بالغموض. ولعلّ الأمر المحزن أنّ الكثير من الشباب المسيحي المعاصر في العالم أجمع مُتغرِّب عن الآباء بدعوى المُعاصرة والحداثة، فمؤلّفات الآباء مازالت مُتغرِّبة ـ في معظمها ـ عن مكتبات الشباب.

والآباء في فكر البعض تمّ اختزالهم إلى لقبٍ أو مقولةٍ عامّة شموليّة تُلقي بالضوء على مَنْحَى أحادي من حيواتهم الثريّة. فإغناطيوس الأنطاكي هو الثيوفوروس (حامل الله) وبنتينوس هو النحلة الصقليّة الذي يجمع رحيق الأزهار من مروج الرُسُل والأنبياء، ليُحوِّلها في نفوس سامعيه إلى مبادئ المعرفة الخالدة، كما كتب كليمندس السكندري. وإيريناؤس هو الذي قيل عنه إنّه قضَى على الغنوسيّة وأقام علم اللاّهوت. وأثناسيوس هو المُدافع عن الإيمان وهو الذي قيل عنه إنّه "ضِدّ العالم"، كما دعاه، ثيودوريت الأسقف؛ "المنبر الأعظم". ويوحنا هو الذهبيّ الفم، الواعظ الذي لا يُدانيه أحدٌ في القدرة على الوصول إلى مستمعيه وتحريك قلوبهم بكلماته المؤثـّرة والممسوحة بالصبغة البلاغيّة. وكيرلُّس هو "عمود الدين" أو "ختم الآباء" كما لقّبه أناستاسيوس السينائي، ومارأفرام هو قيثارة الروح ... إلخ. هنا ونجد أنّ تلك الرؤية الأُحاديّة النقليّة من فمٍ لأذن، تُمثـّل خريطة ذهنيّة ذات عنصر أوحد، لا تلجّ في تفاصيل شرح هذا اللّقب أو تلك المقولة.

لست بصدد الغوص في وريقات المخطوطات لاستخرج منها نصوصًا آبائيّة تائهة عن قارئ العربيّة، كما إنني لست بصدد إعادة بعث لنصوصٍ صارت نسيًّا منسيًّا. فهذا عمل مؤسّسي يحتاج إلى تكاتف العديد من الأفراد والجهات. ولكنني سأحاول جاهدًا أن أغوص مع قارئي في بحار فكر الآباء المُتَّسِع بحثـًا عن لآلئ الروح، زادًا للمسير وسط لُجَج العالم المضطربة بشتَّى أنواع المعارف والثقافات.

ولن أستطيع هنا مهما حاولت جاهدًا توخّي الدقّة والاستبصار والتحليل الموضوعي، أن أقف على جُملة الفكر الآبائي. فقط أسعَى لإعادة تأهيل ذاكرتنا ووجداننا لتراث الآباء، وقراءته من منظور المعاصرة والاحتياج الآني لإنسان القرن الحادي والعشرين. ولعلّ الذاكرة المتطهرّة بلهب ذكرى الآباء، تصير معملاً لتصدير الفكر والحياة للعالم.

إنّ الإشكاليّة المعاصرة هي أنّ اللاّهوت يُدرَّس في الغرب كما تُدرَّس العلوم التجريبيّة العلميّة؛ لذا أصبح مَنْ يُدرِّس اللاّهوت هو مَنْ يحصل على الشهادة المُؤهِّلة لذلك، وإن كان مُلحِدًا، وهذا الأمر أصبح بمثابة فصل للاّهوت عن الحياة، وفصل المعرفة عن الاستنارة.

لم يكن آباؤنا هكذا. فقد كانوا ينهلون من المعرفة العلميّة ليلقوا بها في جُرن معموديّة الصلاة .. يرسمونها باسم الثالوث، لتخرج أداة ملكوتيّة روحيّة رعائيّة لاهوتيّة.

وعلى الجانب الآخر لم يكن الآباء نخبويين، يتعاملون مع الصفوة المُثقّفة من المسيحيين، بسبب الثقافة التي حازوها، فمعرفتهم دائمًا كانت في خدمة اللاّهوت، وتعليمهم اللاهوتي كان علاقتهم المنطوقة مع الله الثالوث.

لماذا الآباء

إنّ الباحث في نصوص الآباء وخاصّة في لُغاتها الأصليّة أو حتّى في اللُّغات الغربيّة التي تُرجِمَت إليها، فضلاً عن الاطّلاع على الأبحاث والدراسات الخاصّة بالشأن الآبائي، يُدْرِك أوّل ما يُدْرِك أنّ ما وصل إلى أيدينا من نصوص أقل بكثير ممّا فُقِد، لذا أصبح لزامًا علينا أن نرتشف ممّا عندنا علّنا نصل لصورة أكثر وضوحًا لحياة أولئك الذين جاهروا بالحقّ وأصبحوا أنشودته وسط عالمٍ طالته شظايا الفساد وشوّهت معالمه، فأصبح عالمًا لا يُعبِّر عن خالقه.

حينما نغوص في بحار الفكر الآبائي فإننا نجد أنفسنا أمام لآلئ لامعة غنيّة، ولكن هل من لؤلؤ لم يكن وليد دموعٍ وأنـّات؟ فاللؤلؤة هي نتاج تلك المادة العازلة التي يفرزها حيوان اللؤلؤ حول حبّة الرمل التي تنخسه فتؤلمه، فيغطّيها بتلك المادّة البيضاء، التي تلتف حول حبّة الرمل، وتصير لؤلؤة. فحبّات اللؤلؤ، كما يقول أحد الكُتّاب، "ليست إلاّ دموعًا لحيوانٍ عاش هادئـًا مُعلَّقًا في المحيط .. إنـّه فنانٌ انطوى، انزوى، وبكـَى فنـًّا .. فحبّات اللؤلؤ دموعٌ لامعةٌ".

إنّ العالم الآن، كما كان قديمًا، هو مخزنٌ للآلام التي لا تنضب، لا يَتِح لنا لحظات ننعم فيها بالراحة؛ فالآلام تقف مُترصِّدة مَنْ يسير نحو الله، لتصير إكليلهم المتوِّج هامتهم أمام عرش النعمة، تلك كانت قناعة الآباء.

هل الجندي يعرف الراحة والملذّات؟

الحياة الحاضرة هي حربٌ، هي قتالٌ، شدائدٌ مستمرّةٌ،
ضيقٌ بلا نهاية. اختباراتٌ،
هي ملعبٌ كبيرٌ صراعاته لا تنتهي.
زمن الراحة يأتي في وقت متأخّر،
والوقت الحالي هو زمن العمل والتعب.

القديس يوحنّا الذهبي الفم

إنْ شئت أن تعرف ما هو من شأن حياتنا الخاصّة،
وجدت أمورًا أُخرى مشابهة:
كوخًا صغيرًا خانقًا، يستبدُّ فيه البرد، والظلمة، والضيق، وجميع الحسنات التي من هذا النوع!!
وحياةً يُراقبها الجميع،
يراقبون الصوت والنظر والملبس
وحركة اليد وانتقال الرِّجل ...
وبهذا الهدف يجتمعون لمحاربتنا،
سواء كانوا أفرادًا أم مجتمعاتٍ أم أديارًا.

القديس غريغوريوس النيسي

هوذا الأمواج تشتد والعاصفة تزداد عنفًا،
لكنّي لا أخاف الغرق، إذ أقف على صخرة.
إن هاج البحر لا يستطيع أن يطويها
لترتفع الأمواج فإنها لا تقدر أن تبتلع سفينة يسوع ..

القديس يوحنّا الذهبي الفم

لم يلمع الآباء، كما يلمع عظماء العالم، لأنّهم داعبوا مشاعر الجموع بكلماتٍ رنّانة سطحيّة مُجوّفة المعنَى وفارغة المضمون، ولكنّهم لمعوا تحت ضياء النعمة التي عكست مجد الخلاص على وجوههم المُنهَكة بالألمِ والمكابدةِ. لقد فرّ الآباء من الجموع ومديحهم فرارهم من الهاويّة، أحبّوا الصحاري لأنّها شهدت صِدق الاختبار والعلاقة الخفيّة مع الثالوث. لم تصنعهم الجماهير، بل صنعتهم النعمة التي رافقتهم طالما كانوا مُجاهرين بالحقِّ قابلين في أجسادهم إماتة الربّ يسوع.

لم تكن حياة الآباء سهلة، فلقد عانوا من مختلف الجهات صعوبات جمّة، إذ قد استشهد منهم الكثير، ونُفي آخرون، واضُطهِد كثيرون. فهناك دائمًا هيروديا ترقص ومطلبها دائمًا صوت الحقّ؛ رأس يوحنّا.

فها هو القديس يوحنّا الذهبي الفم يُنفَى مرّتين بمرسومٍ إمبراطوريٍّ، ليتنيّح في منطقة نائية بقرب شواطئ البحر الأسود. كذلك القديس أثناسيوس نُفي خمس مرّات، جاب فيها نصف بلدان أوروبا، واختبأ في مغائر صحراء نتريا. كما لاقَى بوليكاربوس وإغناطيوس ويوستين، المسيح، مُخضَّبين بدماء الحبّ .. فمع المسيح كان الآباء مصلوبين.

عندما يهرب إلى مصر اهرب أنت معه؛
ورافقه فرحًا في المنفَى.
إنّه عمل عظيم أن تشترك مع المسيح المُضطهَد.
وإن أبطأ كثيرًا في مصر فادعوه من هناك
بتقديم عبادة خاشعة له هناك.
اتبع المسيح بلا لوم في كلّ مراحل حياته وكل صفاته. تطهّر واختتن؛
انزع البرقع الذي كان يغطيك منذ ولادتك.
بعد ذلك علِّم في الهيكل واطرد التجار من هيكل الله،
اسمح لهم أن يرجموك لو لزم الأمر،
فإنّي أعرف جيّدًا
أنك سوف تفلت من بين هؤلاء الذين يرجمونك مثل الله. لأن الكلمة لا يُرجَم.
إن جاءوا بك إلى هيرودس
لا تُعطِه إجابة عن أغلب أسئلته؛
فسوف يحترم صمتك
أكثر من احترامه لأحاديث الشعب الكثيرة.
إذا جلدوك اطلب منهم أن يتمّموا كلّ الجلدات.
ذُق المر واشرب الخل؛
واطلب أن يبصقوا على وجهك؛
اقبل منهم اللّطمات والشتائم،
وتوج رأسك بإكليل الشوك، أي بأشواك حياة التقوى. البس ثوب الأرجوان وامسك القصبة في يدك،
واقبل السجود بسخريةٍ

من أولئك الذين يسخرون من الحقِّ؛
أخيرًا فلتُصْلَب مع المسيح، واشترك في موته ودفنه بفرحٍ
لكي تقوم معه وتتمجّد معه وتملك معه.

القديس غريغوريوس النزينزي

لم يعبأ الآباء بسلطة الأباطرة، طالما أنـّهم على جانب الحقّ الإلهي. لقد بزغ نورهم من بين حطام إنساني، ليعلنوا لنا بآثارهم طريق التتويج في المسيح. هل كانت الحروب والصراعات التي طالت آباءنا، والتي نقل لنا التاريخ قبسًا منها في مجلّداته، بسبب عملهم الدَّؤُوب وسعيهم الحثيث في نشر تعليم الإنجيل كما تسلَّموه وعايشوه؟ يبدو ذلك؛ فالآلام تتزايد على مَنْ يَفْتَضِح الظلمة، والأسهم تُصوَّب على مَنْ يُجاهِرون بالحقِّ؛ أي يجاهرون بالمسيح.

لأنّه مهما كان الإنسان على قدر من العظمة والجدارة، فبمجرّد أن يبدأ في قيادة سفينة الكنيسة،
يواجه حيرة تبدو غريبة في نظره،
وذلك بسبب الصعوبات التي تثور أمامه من كلّ جانبٍ كأمواج البحر.

القديس يوحنّا الذهبي الفم

بالرغم من أنـّي تعوّقت بسبب هذه المِحَن
التي بلا شك سمعتم عنها
مع التجارب القاسية التي وُضِعَت عليّ
وقد فصلتنا هذه المسافات الطويلة
وقد تعقّبنا أعداء الحقّ في كلّ طريق ناصبين لنا الفخاخ
لكي يصطادوا أي خطاب منـّا إليكم
بقصد أن يضيفوا باتهاماتهم آلامًا أُخرَى إلى جروحنا
ولكنّ الله قوّانا وعزّانا في كلّ ضيقتنا، فلم نخف البتّة.

القديس أثناسيوس الرسولي

إن البلايا الأُخرى يتحمّلها البشر بسهولة انسياقًا والعادة، ولكنَّ بلايانا هنا تزداد مع الوقت
باستنباط أُخرَى أشدّ إيلامًا.

القديس غريغوريوس النيسي

لقد كتب فيليب شاف Phillip Schaff في مؤلّفه "تاريخ الكنيسة"، في جزئه الثالث، عن القديس أثناسيوس، قائلاً: "كان أثناسيوس بمفرده في وقتٍ من الأوقات، وهو محرومٌ من مجمع أساقفة بقرارٍ أمبراطوري. كان وحده الحامل للحقِّ".

فالآباء كانوا رُسُلاً بحقٍّ، يحملون سفارة المسيح على أكتافهم، لا يرهبون موتًا، ولا يخشون ثورات التجارب، إذ لم تستوقِف التجارب أبصارهم التي كانت تُحلِّق في آفاق الحبِّ الإلهي. مَنْ يتذوَّق الحبَّ الإلهي لا يُعاني غصّة الموت الثاني؛ فهو لا يرى الموت إلى الأبد، حسبما وَعَد المسيح.

الله لم يجعلنا رُسُلاً لكي نهرب من المخاطر،
بل لكي نعاني من الآلام حتّى الموت.

القديس يوحنّا الذهبي الفم

لذا كلما كان العالم يترصَّد الآباء بالضيقة كلّما جاهروا بحقِّ الإنجيل، وانطلقوا يكرزون بشجاعة مَنْ هم موتَى عن الحياة، ومصلوبين عن أمجاد العالم وأنيابه. لم يبحث الآباء عن راحةٍ وأمانٍ وسلطةٍ يرفلون فيها. أحبّوا سلاسل الأسر، وألفوا السجون الرطبة، ابتسموا وهم متّهمون في إيمانهم الصحيح؛ فالعار عندهم كان الصمت عن الحقِّ والتوقُّف عن الكرازة.

الموت والسجن والسلاسل
هذه كلّها أمور مخجلة وعار في ذاتها؛
ولكن عندما ترتبط بالكرازة بالمصلوب
تصبح مجيدة وموضع افتخار.

القديس يوحنّا الذهبي الفم

إني ألتفت لا أرى سوى بحر وسماء
وليلاً مرعبًا وأمواجًا هوجاء مزبدة
وظلمات مدلهمة تمتد على صفحة الأمواه
ومع هذا تحثني (يخاطب أنّوشنتيوس) على نشر الأشرعة
وصب الحبال واستلام الدفّة ..
إني متوكِّل في مسيرتي على الروح القدس،
الذي يبقى لي المعزي أينما سلكت ..

القديس جيروم

كانت المحبَّة الإلهيّة مُحرِّكهم الأوَّل ودافعهم الأعظم، وخبرتهم الأصدق، ومعاينتهم الأكمل. لم تكن محبّتهم لله فكرًا يسبحون فيه ويدعون الآخرين ليشاركونهم أوهامه، بل كانت محبّة نابعة من الصليب، محروسة بالمخافة الإلهيّة، لذا كانوا أحرارًا من المجد العالمي البارق في عيون الجموع، مكتفين بالإيمان والتقوى ككنز رحلتهم الدهريّة نحو ملكوت الله.

عندما تتغلّب شهوة المجد في قلب الإنسان
على مخافة الله ومحبّته
فتلك رذيلة من ألدّ أعداء الإيمان والتقوى.

القديس أغسطينوس

لقد تركنا هذه العبادات (الوثنيّة)،
مُعرِّضين حياتنا للخطر، حبًّا بيسوع المسيح.

يوستين الشهيد

إنّ حديثنا عن الآباء ليس سردًا لوقائع التاريخ، ولكن تتبُّعه ومشاهدته وهو يتكوَّن على أيدي أولئك الذين قادوا قاطرته حيثما أرادوا، وما إرادتهم إلاّ فكر المسيح.

لم يكن آباؤنا ممّن كانت تقودهم الحوادث والخطوب إلى قدرٍ محتوم، يستسلمون لها في شكوى العاجز!! ولكنّهم كانوا مشعلاً يقود ظلمة التاريخ حينما تعلو سماءه غيمةٌ من الضيقة. واجَهوا .. جُرِحوا .. ولكنّهم أبدًا لم يجهضوا كلمات الحقّ قبل أن تولِّد ثورة إلهيّة على عالم الفساد.

كانوا عُرضة للكثير من المؤامرات والدسائس، للإطاحة بهم بعيدًا عن قيادة الكنيسة، كما حدث مع القديس أثناسيوس الذي لاقَى الأمريْن ممّن عادوه. من تلك المؤامرات تلك التي رصدها لنا ثيودوريت المؤرِّخ عن مجمع صور (٣٣٥م) إذ كتب: "في الصباح الباكر حضر أثناسيوس إلى المجمع، وفي هذا اليوم كانت أوّل قضيّة قُدِّمَت: قضية امرأة فاسدة بدأت بوقاحةٍ وتهوُّرٍ وصوتٍ عالٍ تقول إنّها كانت قد نذرت بتوليتها ولكن أثناسيوس جاء إلى منزلها وأفسد عفّتها ... فلما طلبت المحكمة من أثناسيوس أن يرد على الإتّهام، صمت أثناسيوس." وكان تلميذه تيموثاوس هو مَنْ كشف الخديعة إذ ادّعى أنّه أثناسيوس فما كان منها إلاّ أن كالت له الاتّهامات، فانكشف أمرها.

كذلك القديس جيروم الذي كان مُرشّحًا لرئاسة روما خلف البابا داماسيوس (٣٨٤م) إلاّ أن مناوئوه لفّقوا له تهمةً بدسّ ملابس امرأة في مسكنه، الأمر الذي حدا به إلى مغادرة روما، نافضًا غبار حذائه كوصيّة الربّ. كما كانت كتاباته ضدّ البيلاجيين السبب في حنقهم عليه، فهجموا على مسكنه وأحرقوه بالنّار .. ولسان حاله يردِّد مع الشاعر هوراس:

يُنقَضُ الكونُ وأبقَى ثابتًا تحت ركامه

في كلّ هذا، لم يخشَى الآباء من مخالب الذئاب بينما كانوا يقودون قطيع المسيح إلى الحظائر السمائيّة، بل كانت مخالب مقاوميهم علامات من نورٍ حُفِرَت على أبدانهم ونفوسهم، شهادةً لتغرُّبهم عن منطق المادة واللّذة وسلطة الزمان الحاضر. وبينما كانت الجموع نائمة كانوا هم يقظون يحرسون حراسات الليل على قطيع الربِّ. فالإكليل لا يحتضن رؤوسًا لم تُفلَّح ببذار اليقظة والسهر.

إنّهم (المقاومون للحقّ الإلهي) يشنّون الحرب عن قرب،
ويطلقون السهام عن بُعد؛ يُجمِّعون الكتائب للحربِّ، وينصبون الكمائن في تكتُّم؛ يتغلّبون بتعاونهم،
ويقيمون لهم حصنًا حصينًا من مناصريهم.
إله المال قدير لديهم، وليس هنالك مَنْ يتغلَّب عليه:
إنّه في المقدِّمة يعمل بيمينه وشماله،
تارةً يفرض جزيةً على مَنْ خضعوا له،
وتارةً يقضي على مَنْ كانوا في متناول يده!!

القديس غريغوريوس النيسي

إن الآباء ليسوا كُهَّان في معابد خيالنا نحرص على تجميلهم وطاعتهم لأنـَّهم هويّتنا وجذورنا، ولكنّهم معاول لهدم أوثان العالم التي شكَّلتها يدُ الشيطان في فترات خلو معابد أذهاننا من أيقونة الله الثالوث. هم آلات الروح ولسانه الناطق في هياكلنا بكلمة الله التي تفتضح زيف البشر الذين تجمَّلوا في أروقة العالم بأدوات العالم، ليخفوا قبحهم المتنامي باغترابهم عن ذواتهم وتغرُّبهم عن أصلهم الإلهي النقي. كلّ هيكل جدرانه مزيّنة بنقوش العالم أو بنقوش الله؛ وما نقش العالم إلاّ غرقاه، بينما نقش الله هم بشرٌ وجدوا الميناء ورَسَتْ أزمانهم على ضفاف الملكوت.

لم تكن الرعاية منفصلة عن اللاّهوت في كتابات الآباء الأُوَل، إذ هي الوجه العملي لفهم اللاّهوت ومعايشته. لذا كانت كتاباتهم تحمل حسًّا رعائيًّا بشكلٍ أو بآخر. فمثلاً نجد أنّ الرعاية عند القديس غريغوريوس اللاّهوتي هي: "الاهتمام بالإنسان الداخلي الخفي".

إنّ آباءنا كانوا رعاة بما تحمله الكلمة من حبّ وخوف وإشفاق ومسؤوليّة تجاه الرعيّة. بحس الرعاية كتبوا، وبحس الرعاية جابهوا الهرطقات وتكرَّسوا لمواجهتها. لم تكن مؤلفاتهم "علميّة" بالمفهوم المعاصر للكلمة؛ فليس هناك ما يُسمَّى بمعلومة دينيّة مُجرّدة، وليس هناك ما يُسمَّى بلاهوت نظري،

عند الآباء. كلُّ معرفة ترتبط بخيط سري بسؤال؛ كيف سأستفيد من تلك المعرفة في علاقتي بالله الثالوث؟ وكيف ستستفيد الكنيسة من تلك المعرفة في شرح وتوضيح الإيمان؟ هذا ما كان يبحثه الآباء.

لذا كان آباؤنا جُزُرًا تُصدِّر نغمات الحقِّ العذبة فتأسر السفن التائهة وتجتذبها إلى بحار معرفة الله. هم خطًّا استوائيًّا نقف على حدوده لنتحسَّس موقعنا من خارطة المعرفة الإلهيّة. إنهم تلك المياه الرائقة الساكنة التي تنظر إليها فتتعرَّف على ذاتك، ترى قبحًا أو جمالاً .. لا يخدعونك .. لا يزيِّفون حقيقتك، فهم قطراتٌ تآلفت بفعل الروح وتجمَّعت في نهر الحبِّ الإلهي ليعبُر عليهم مرتحلو الحياة، بحثـًا عن مصداقيّة ما بعد الحواس، وإذ بمَنْ يعبرون ويتكشّفون سِرّ الروح، يندفعون نحو المياه، ليصيروا هم أنفسهم قطرةً في نهر الحبِّ الذي ينبع من الله وينتهي في الله.

لم يكن الآباء ممّن وُلِدوا على أسرَّة من نورٍ، لم يعاينوا عليها قُبح الخطيئة ولا هول التعدِّي ولا وخزات الحياة المُحتجَبة تحت سُحُب الظلمة؛ ومنهم مَنْ كانت له خبرات في الشرور يندَى لها الجبين. إلاّ أن نور الحبّ الإلهي حينما يُشرِق على قلبٍ لا يمكنه إلاّ أن يُؤخَذ بذاك الضياء الناعم الهادئ الذي يشير إلى حياةٍ أُخرى في بلدان النور.

أمّا أنا، فحين كنت خائر القوى
في ظلمات ليلة خارجيّة من الضياء،
وحين كنت متردِّدًا وحائرًا،
يتقاذفني التموُّج في بحر العالم المضطرب،
غير مُطّلع على حياتي وغريبًا عن الحقيقة والنور،
كنت أستصعب وأستثقل حقًّا،
نظرًا إلى عاداتي في تلك الأيام،
ما كانت الرحمة الإلهيّة تعد به لكي تُخلِّصني:
كان من الممكن أن يُولَد الإنسان مرّة أُخرَى؛
الولادة لحياةٍ جديدةٍ بغسل الماء الذي يهب الخلاص،
ليُجرّد الإنسان ويغيِّره عمّا كان قبلاً،
روحًا ونفسًا،
مع المحافظة على تكوينه الطبيعي ...
ذلك ما كنت أقوله كثيرًا لنفسي.

فبالفعل، كنت أنا أيضًا محبوسًا ومرتبكًا
من فرط ضلالات حياتي السابقة
التي ما كنت أظنّ أنّي قادر على التخلُّص منها:
هكذا كنت أخضع للرذائل التي كانت جزءًا منّي،
ومن شدّة يأسي من تحسُّن وضعي،
كنت أشجِّع شروري كما لو كانت مالي الخاص
وعبيدي منذ الولادة.
ولكن، بعد أن غُسلت لطخات حياتي القديمة،
بعون الماء المُجدِّد،
وفاض نور الأعالي على نفسي المُحرَّرة والمُطهَّرة،
وبعد أن نُلت الروح القدس الآتي من السماء،
تحوّلت إلى إنسان جديد بفضل تلك الولادة الجديدة.
ما أعجب السرعة التي رأيت بها اليقين يُزيل شكوكي،
والحواجز تنفتح،
والظلمات تشرق،
ويَسْهُل ما كان يبدو عسيرًا،
وصارت هناك إمكانيّة لما كنت أظن أنّه مستحيلٌ.

القديس كبريانوس

كم من مرّةٍ وأنا في مسكن النسّاك الرهيب،
في تلك البريّة الشاسعة الملتهبة بحرارة الشمس،
كنت أرى نفسي منغمسًا في ملذّات روما ..
وفيما تُمعِن الأصوام في وجهي شحوبًا،
وتُجمِّد الدّم في جسدي،
كانت الروح تلتهب بالرغبات
وفي صدري الأقرب إلى الموت منه إلى الحياة
كانت تُعربد نار الشهوة.

القديس جيروم

تألّم بعضهم حينما واجهته النعمة بخطايا صباه بل وأخطاء طفولته أيضًا، وهل من أخطاء للأطفال؟! إنـّه فساد الطبيعة الذي يظهر دون وعي أو إرادة ولكنّه يشهد على الخطيئة التي جازت من آدم إلى الجميع، ففي آدم أخطأ الجميع ..

من تراه يُظهِر لي خطايا طفولتي،
لأنّه ليس أحدٌ طاهرًا أمام عينيك،
ولو كان طفلاً، ابن يومٍ واحدٍ ..
فإن كان فساد الطبيعة يظهر فـيَّ، يا سيدي،
وأنا في ذلك العمر،
ففي أي وقت يا ترى كنت لديك بارًّا طاهرًا!!

القديس أغسطينوس

يرى البعض، الآباء، وكأنـّهم أنصاف آلهة!! لم يُخطئوا، وكأنـّهم وُلِدوا من رحمٍ آخر لا يعرف مَخاض الخطيئة التي تحاصر مَنْ يُؤتَى بهم إلى الوجود!! وهم بهذا يحرموننا من أن نرى فيهم إنسانيّة كالتي لنا، فتصبح القداسة لنا بالتالي، طموحًا أكبر من قدراتنا التي تمسّها أنامل الخطيئة بين الحين والآخر. ولكن، هل كان الآباء كذلك؟ لا أظن، فهم بشرٌ جاهدوا وانتصروا.

ها هو القديس غريغوريوس اللاّهوتي يشرح عمّا كان يعتلجُ في نفسه من أفكارٍ زهاء المقابلة الباهتة الباردة التي لاقاه بها هلاَّذيوس، أفكار تتأرجح بين الثورة للذات وإماتة الذات، فيقول:

قد لمست في نفسي صراع موقفيْن؛
موقفٌ يثورُ للإهانة التي لحقتني من الغطرسة،
وموقفٌ يحاول تهدئة الاضطراب.
وعندما تغلَّب عندي، بعون الله،
الميلُ الأصلح توجهت أنا إليه...

وانتصرت الإماتة على الثورة والغضب. هنا نرى الصراع بين ما هو إنساني وما هو إلهي في داخله، وهو الصراع الذي نحيا على وقع نغماته كلّ يومٍ، ولكن يتفوَّق الآباء دائمًا في إنهاء الصراع بالخضوع

لمشورة الروح. لذا فالآباء كانوا مجاهدين من طراز رفيع، لا يرضوا لأنفسهم بحياةٍ دون الأبديّة ولا بمرشدٍ سوى الروح الإلهي.

الناس الأكثر نموًّا في الفضيلة
لا يخلون من بعض الأخطاء
التي يتحرّرون منها هنا بالآلام

القديس يوحنّا الذهبي الفم

لقد كتب ترتليان كتابًا أسماه "في الصبر"، وقال في استهلاليّة الكتاب:

لقد كتبت هذا الكتاب لافتقادي إلى الصبر.
أنا لا أعلم عنه شيئًا. ولكنّي في حاجة إليه؛
فهو سِمة مسيحيّة أساسيّة.
لذا فبدلاً من أن أكتب كتابًا عن شيء أظنني أجيده، سـأكتب عمّا لا أجيده على الإطلاق.

جاء آباؤنا من مختلف البقاع والثقافات وكأنّ الروح استقطبهم كما يستقطب النور فراشات المساء؛ منهم مَنْ جاء من عائلة وثنيّة لم تُولَد في الإيمان ككليمندس السكندري والذي أصبح فيما بعد "رائد الثقافة المسيحيّة" كما أطلق عليه كواستن Quasten، وآخرون جاؤوا من عائلات النبلاء ككبريانوس، وآخرون ولدوا في عائلات أرستوقراطيّة ونالوا قسطًا وافرًا من العِلْم مثل باسيليوس الكبير وغريغوريوس النزينزي، ومنهم مَنْ كان يرزح تحت ضغط الفقر مثل أوريجانوس الذي كان عليه أن يعيل عائلته (كان الأكبر بين سبعة أشقاء) بعد استشهاد والده، ومنهم مَنْ درس الحقوق وتمرَّس على القانون مثل ترتليان، ومنهم مَنْ برع في الفلسفة كبنتينوس السكندري ..

آباؤنا كانوا يستوطنون الغربة منذ أن انطلقوا على آثار المُخلِّص، بعد أن حررَّتهم الكلمة الإلهيّة واغتسلوا في المعموديّة، صاروا متجوّلين على دروب الربِّ. تركوا الأهل والأقارب والأصدقاء والأوطان والطرقات التي شهدت طفولتهم وصباهم .. تركوا كلَّ شيءٍ دون أن يربطهم خيطٌ بالماضي؛ فالكلمة أخذتهم لمناطقٍ غير مأهولة، قضوا حيواتهم يلهثون وراء النعمة، يرتشفون منها فيسكرون حُبًّا، فيدفعهم ظمأ النهم الروحي لطلب المزيد، فيجوبون أميال الصراع والجهاد في قفار الحيرة والمثابرة والسهر، حتّى تملأ النعمة أوانيهم مُجدَّدًا. والنعمة لا تترك إناءً فارغًا دون أن تملأه.

روح الآباء

لقد امتدح القديس بولس تلميذه تيموثاوس إذ كان يسير على خُطاه؛ « وأمَّا أنت فقد تبعتَ تعليمي وسيرتي وقصدي وإيماني وأناتي ومحبَّتي وصبري واضطهاداتي وآلامي ... » (٢تي٣: ١٠). لم يكن تعليم تيموثاوس بمثابة تطبيق نظري لكلمات ومنطوقات إيمانيّة تعلّمها من القديس بولس، ولكنّه استقَى منه الحياة المسيحيّة بمختلف جوانبها. لذا يكتب وستُن H. G. Weston في كتابه "متّى، تكوين العهد الجديد" *Matthew, the Genesis of the New Testament* فيقول: "إنّ المسيحي يتشكّل على ثلاث: ماهيّته ومعتقده وفعله، أي على العقيدة والخبرة والممارسة. ولكي ينمو المسيحي هو في حاجة إلى ثلاثة عوامل أُخرى: الحياة والتعلُّم والإرشاد".

قياسًا على تلك الكلمات، نجد أنّ الآباء هم مصدر رئيسي لمنطوقات العقيدة المستقيمة التي تُشكِّل المسيحي، فضلاً عن كونهم نموذجًا يُحتذَى به نستقي منه الخبرة في أنقَى صورها. لذا كتب القديس غريغوريوس النزينزي في مدحه للقديس أثناسيوس، قائلاً:

حين أمدح أثناسيوس،
أمدح الفضيلة عينها

إنـّنا في تناولنا لسِّيَر الآباء لا نروم سوى رؤية الفضيلة مُشخصنَة في عالم البشر، نتلمّس إنجيلاً حيًّا يُلقي بشباك ضيائه، ليصطاد نفوسًا لملكوت الله. لا نبغي الخوض في حديث عقائدي مُفصَّل ليس هنا مقامه، ولكننا نستجمع ومضات حيّة من أقوال الآباء لنضعها بجوار بعضها البعض، لنرى الكنيسة وكيف ينبغي أن تكون؟ ونستشرف دورنا ورسالتنا في الكنيسة بل وفي الحياة، كسفراء عن الله وسط عالمٍ مُتغرِّب عن الأبديّة.

مَنْ يكتشف دوره ورسالته يجب أن يتحرَّك نحو الإعلان .. نحو المجاهرة .. إذ لا يكفي أن نعرف بل علينا أن نُمدِّد رقعة المعرفة الإلهيّة بسعينا الحثيث لخدمة ملكوت الله. لذا كتب بونيفاس رمزي Boniface Ramsey: "لقد أدرك الآباء جيِّدًا أنـّه لا يكفي الكلام عن الحقّ؛ فالحقّ يجب أن يكون مشروحًا ومكتوبًا بطريقة بلاغيّة فصيحة، وفي نفس الوقت مقنعة للجميع". كان هذا الأمر هو همُّهم الأوَّل وشغلُهم الشاغل؛ كيفيّة تقديم الإيمان؟

كان بوسيُه Boisseut يتساءل: "ماذا كان آباء الكنيسة يفعلون في هذا الموقف؟؟" ويضيف: "عِلمًا بأنّ كُتُبهم كانت تملأ غرفتي وكان اسمهم يصادف نظراتي في كلّ لحظة." فمن الآباء نستلهم مسيرتنا وحركتنا، ومن نهايتهم المجيدة نتثبّت بالصبر الذي يؤول إلى مجدٍ في نهاية الأمر.

في قراءتنا للآباء نرى تجسيدًا لمطلب المسيح من تلاميذه بالتشبُّه بوداعة الحمام واستلهام حكمة الحيّات للنجاة من فخاخ العالم المنصوبة لأبناء الله. فلم نــرَ الآباء غارقين في الوداعة، حالمين، على حساب المجاهرة الحاسمة بالإيمان والحقّ، كما لم نَرَهم مجاهرين بالحقّ الأجوف الذي لا يستند على قاعدة الحبّ الإلهي والذي لا يستهدف خلاص الإنسان قبل كلّ شيء. لذا يتوجّب علينا استجماع أنفاس الآباء المُنبعثة من بين سطور كتاباتهم، والتي مازالت تُعطِّر الكنيسة، لنسلك على آثارهم، بعيدًا عن وادي الموت والفناء، نحو مدينة الله.

إنّ العودة إلى فكر الآباء واستقراء حياتهم على ضوء العصر الحالي، ليس نوعًا من الحنين للماضي *nostalgia*، فالأمس حلمٌ لا يعود ولعلّ هذا هو سِرُّ جاذبيته وألقه، ولكنّنا نترجَّى الاندفاع بقوّة الماضي والحاضر إلى المستقبل. فبقدر قوّة وعمق جذور الماضي الحيّ والفاعل في واقع الكنيسة المعاصر، وبقدر انفتاحها على المعاصرة دون الانحياز للماضي أو التبعثــُر في الواقع، بقدر ما تتحرّك نحو المستقبل بقوة وثبات وفاعليّة أكبر.

لذا يجب أن نعي أنّ التعرُّف إلى الآباء لا نعني به استحضار بعض المعلومات الذهنيّة عن هذا أو ذاك، ولكـن معايشة التفاصيل الحياتيّة لكلٍّ منهم والتأمُّل في ردود أفعالهم ومناهج حياتهم وقراءة ما بين السطور من عمل روح الله في الكنيسة من خلالهم. إنـّها بمثابة دعوة لندعْ الآباء يصيرون لنا مصدر إلهام حياتي وعقائدي وسلوكي؛ فهُم مرآة عكست مجد وبهاء المسيح؛ فالله دائمًا مُسبَّح في قديسيه.

إنّ غير الكاملين والمبتدئين في تعاليم الخلاص،
فليتثقّفوا ممّن سبقوهم في طريق الكمال،
الذين يلدونهم كأمهات،
إلى أن يُبصِروا النور ويولدوا ولادة جديدة،
فيرتفعوا إلى سِعة الفضيلة وتألُّقها.

ميتوديوس الأولمبي

تقنين مصطلح "الآباء"

الآباء هم أصحاب الرأي المُستقيم (الأرثوذكسي)، نأخذ منهم تحديدات اللاّهوت، لأنّ الكنيسة أقرّت أنـّهم متناغمو الرأي والعقيدة، كلّ منهم يبني على مَنْ سبقه .. ينطلق منه .. يهتدي بكلماته .. يسير على دربه، لذا ليس هناك تعليم عقائدي أبوي (فردي) ولكن هناك تعليم عقائدي آبائي (جماعي)، فالكنيسة لا تعرف الفرد ولكن الجماعة، أوليست الكنيسة جسد المسيح المتكامل الأعضاء والأدوار؟ وما المجامع المسكونيّة إلاّ تجمُّع للآباء ليتشاركوا الرأي ويتباحثوا، على ضوء ما تسلّموه ممّن سبقهم.

ولكن العقيدة ليست منطوقات إيمانيّة تُصاغ بالمنطق البشري والفطنة الذهنيّة وإلاّ كانت المسيحيّة في آخر الأمر هي مذهب فلسفي جديد!! ولكنـّها منطوق الحياة .. تدوين الإعلان .. نقش الروح .. نبت الخبرة .. صوت الحقّ الإلهي في القلوب التي تجرّدت لاستقباله. فالتعليم الآبائي يفقد لونه ونكهته إن لم يَصِر نورًا ينتقل لهبه من قلبٍ إلى قلبٍ. توقّفه في معاريج العقول الجامدة يعني خلوده في الصمت، وما الصمت إلاّ الكتب والمؤلَّفات الساكنة التي لا تُحفِّز الحياة. من هنا نشأت الضرورات الأربع لتعريف الأب الحيّ الذي تقرّه الكنيسة كأيقونة حيّة للمسيح وفعلاً مُجسَّدًا لعمل الروح، وهي:

- استقامة (أرثوذكسيّة) الرأي
- قداسة الحياة
- الإجماع الكنسي
- القِدَم التاريخي

وفي سياق تعريف الأبوّة الكنسيّة، نجد أنّ الكنيسة قد أعطت ألقابًا خاصة بدلاً من "القديس" لبعض الآباء؛ ومن الأمثلة البارزة في التاريخ الكنسي والتي تشهد على ضرورة المبادئ الأربعة لتعريف "الأب"، هو أوريجانوس. فبالرغم من الشهرة الكبيرة التي حازها في عصره كونه مثالاً حيًّا للمسيحي المُكرَّس والناسك المنضبط (بالرغم من مغالاته النُسكيّة في بعض الأحيان)، وكذلك تنوُّع كتاباته التي تخطّت ألفي كتاب ما بين التفاسير والعظات والمباحث اللاّهوتية فضلاً عن الترجمة التقابليّة التي قدّمها لبعض الأسفار الكتابيّة من العهد القديم، حتّى إنـّه في مجلّة "التاريخ المسيحي" *Christian History*، وفي تبويبها الذي أجرته لأهم مئة تاريخ في التاريخ المسيحي، كان عام ٢١٥م، وهو العام الذي بدأ فيه أوريجانوس الكتابة، أحد تلك التواريخ الهامّة في المحيط المسيحي على مرّ العصور.

إلاّ إنّ أوريجانوس افتقد للمبدأ الثالث وهو الإجماع الكنسي على استقامة الرأي نظرًا لما ورد في كتاباته من أفكار لا تتفق مع الإيمان الصحيح كما جاء في الدستور النيقاوي. وفي نفس السياق، نجد نفس الأمر ينسحب على ترتليان الذي كانت له إسهامات هائلة في التعليم المسيحي فكتاباته تُشكِّل القوام الرئيسي للأدب المسيحي اللاّتيني، فهو من أدخل ٥٠٩ اسمًا جديدًا و٢٨٤ صفة، و١٦١ فعلاً إلى اللُّغة اللاتينيّة، إذ لم تكن المفردات اللُّغويّة كافية له للتعبير عن الإيمانيات، فخلَّق كلمات جديدة للتعبير عمّا أراد. ومن الكلمات التي نحتها في اللاتينيّة كلمة "الثالوث".

من هنا نجد أنّ الكنيسة رأت أن هؤلاء مُعلِّمون نأخذ عنهم بعض التعاليم النافعة ولكن لا نستطيع أن نُلقِّبهم "آباء" قبل أن يتم الإجماع الكنسي عليهم، وذلك بالرغم من انضمامهم لحقبة الآباء زمنيًّا وهو الذي جعل تصنيفهم من الآباء في مطبوعات النصوص الآبائيّة، ولكنهم يحملون، في التقليد، لقب "العلاّمة / الكاتب الكنسي". ولعلّ هذا الأمر يجعلنا نعيد النظر فيما وصلنا من تصنيفات قام بها ناشرو نصوص الآباء في الغرب، تلك التصنيفات التي احتوت أوريجانوس (العلاّمة) وترتليان (العلاّمة) ويوسابيوس القيصري (المؤرِّخ) وغيرهم ممّن لم يحظوا بالإجماع الكنسي. لذا من الضروري التفريق بين آباء الكنيسة والكُتَّاب الكنسيين. وهنا نحن لسنا بصدد إعادة تقييم لأعمال هؤلاء الكُتّاب ولكننّا نتكلّم في سياق الإجماع الكنسي.

إنّ القديسين في الكنيسة ينقسمون إلى طغمات؛ ومنهم الآباء. إذًا فالآباء هم رافد من روافد القداسة الممتدة في كلّ مكان والمُتّصلة بالأبديّة، فكلّ الآباء (بالمفهوم الكامل للأب) قديسون، ولكن ليس كلّ القديسين آباء مُعلِّمين ..

تفضل يا ربّ أن تذكر جميع القديسين
الذين أرضوك منذ البدء
آباءنا الأطهار
رؤساء الآباء
الأنبياء
الرُسُل
المبُشِّرين
الإنجيليين
الشهداء
المعترفين

وكلّ أرواح الصديقين
الذين كملوا في الإيمان

مجمع القدّاس
(بحسب ليتورجيا القديس باسيليوس السكندريّة)

ونورد هنا أسماء الآباء (المُعلِّمين) الواردة في الثلاثة قدّاسات المُصلَّى بها في الكنيسة القبطيّة:

القداس الباسيلي	القداس الغريغوري	القديس الكيرلّسي
البطريرك القديس ساويرس	البطريرك القديس ساويرس	البطريرك القديس ساويرس
معلمنا ديسقوروس		
القديس أثناسيوس الرسولي		
القديس بطرس .. رئيس الكهنة		
القديس يوحنّا الذهبي الفمّ		
القديس تاودوسيوس		
القديس ثاوفيلس		
القديس ديمتريوس		
القديس كيرلُّس	القديس كيرلُّس	القديس كيرلُّس
القديس باسيليوس	القديس باسيليوس	القديس باسيليوس
القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيّات	القديس غريغوريوس	القديس غريغوريوس
القديس غريغوريوس الصانع العجائب		
القديس غريغوريوس الأرمني		
الثلثمئة والثمانية عشر المجتمعين بنيقيه		
المئة والخمسين بمدينة القسطنطينيّة		
المئتين بأفسس		

إنّ سمة القدّاس الباسيلي هو الاسترسال في ذكر الآباء المُعلِّمين، بينما نجد صورة مختصرة في القداسيْن الغريغوري والكيرُّلسي. وهو ما يشير إلى أنّ المجمع المُصلَّى به في القدّاس ليس وثيقة حصريّة لآباء الكنيسة.

الإجماع الكنسي

الإجماع الكنسي *consensus patrum* هو أحد العناصر الهامّة للغاية في تحديد الآباء، وذلك لأنّ البيئة والثقافة والمنشأ لهم دور كبير في تشكيل القناعات الشخصيّة، ممّا قد يؤدِّي إلى فهم خاطِئ للنصّ الكتابي إن كان أسير بيئة وثقافة واحدة، وهو الذي حدث مع الهراطقة الذين ألقوا بظلال تأثـُّرهم بالثقافة المُجتمعيّة السائدة في بلادهم على فهمهم للمسيح وللمسيحيّة.

ومَنْ يُلقي نظرة على منشأ الآباء يجدهم تحدّروا من كلّ مكان في المسكونة؛ فما بين الإسكندريّة (مصر)، وقرطاجنّة (تونس حاليًّا)، وهيبو (الجزائر حاليًّا)، وأنطاكيا (سوريا)، وأثينا (اليونان) على البحر المتوسِّط، إلى أورشليم (فلسطين)، إلى نصيبين فيما بين النهرين (شرق سوريا) إلى سلاميس في قبرص، إلى نزينزه، وقيصريّة كبادوكيا، ونيصص في آسيا الصغرى (تركيا حاليًّا)، إلى القسطنطينيّة، ونيقيه حول البحر الأسود غربًا وشرقًا، إلى أفسس على بحر إيجه، إلى روما على نهر التيبر غربًا، وميلان على حدود الجنوبيّة لجبال الألب (إيطاليا)، إلى ليون على نهر الرون (فرنسا)، إلى بواتييه (غرب فرنسا) ...

جبال وبحار تفصل آباء الكنيسة بعضهم عن بعض
لكنّ المسافة لا تحول دون توافقهم
ارتكزوا جميعًا على نعمة الروح القدس الوحيدة نفسها

القديس كيرلُّس السكندري

كذلك نجد أنّ العصر الآبائي امتدّ على مرّ ستّة قرون (بحسب التقليد السكندري) وهو ما يضمن عدم الخضوع الفكري لثقافة عصر أوحد، وبذلك تبقَى المسيحيّة فوق الثقافة والعصر والمكان، ولِمَ لا، أليس المسيح فوق الزمن؟

كما أنّ الشمس، خليقة الله، واحدة في كلّ العالم،
هكذا تعليم الحقّ يُشرق في كلّ مكان
وينير كلّ البشر الراغبين في الوصول إلى معرفة الحقّ

القديس إيريناؤس

إنّ مفهوم العقيدة المُستقاة من "جمع الآباء" ينأى بنا عن بتر النصوص من سياقاتها والخروج بها لشرح قناعاتنا المُسبقة. فقد زعم كلفن Calvin بحسب رؤيته، أنّ آراءه الخاصّة بالإفخارستيا مُتّفقة مع فكر الآباء وقد دلَّل على ذلك بمقتطفات من "بعض" النصوص في التأكيد على طرحه اللاّهوتي؛ منها نصوص لأغسطينوس (الرسالة الثالثة والعشرين) وكبريانوس (الرسالة الثالثة من الكتاب الثاني) وترتليان (ضدّ ماركيون، الكتاب الرابع) ويوحنّا الذهبي الفم (العظة الحادية عشر على إنجيل متّى). كما بنَى البعض فكرتهم عن الاختيار المسبق على بعض النصوص التي أوردها القديس أغسطينوس وحده دون غيره، مثل مبحثه في "ما بين التوبيخ والنعمة"، كذلك كانت تعاليم القديس أغسطينوس عن النعمة في سياق ردّه على البيلاجيّة موضع راحة لهؤلاء!!

لذا فمن الخطورة بمكان أن نُقيم عقيدة على مقتطفات آبائيّة؛ فالعقيدة تمّت صياغتها في المجامع المسكونيّة والتي شهدت إجماعًا آبائيًّا مسكونيًّا. كما أن اقتطاف الكلمات من مكانها وسياقها سيلقي بنا على أعتاب مفاهيم مُشوَّشة؛ لأنّ الآباء في أي عصر عمدوا في كتاباتهم إلى تناول الموضوع من عدّة زوايا، فضلاً على ضرورة الوعي بالظروف التي دعت لكتابة هذا النصّ؛ فخلفيات النصّ لا تقل أهميّة عن قراءة النصّ نفسه. لذا فمَنْ يقتطع العبارات من سياقاتها يترصّد للآباء ليخدم فكره ومذهبه الشخصي. وليست تلك هي الطريقة المسيحيّة لمَنْ يبحث عن الحقّ أو يترجّاه.

لقد كتب قداسة البابا شنوده الثالث حول تلك النقطة، إذ قال: "إنّ فَهم فكر قديس مُعيّن، ليس هو مُجرّد عبارة قيلت منه، أو نُسبَت إليه، في مناسبة معيّنة، إنما هي دراسة فكر هذا القديس في سائر مؤلّفاته".

إنّ الرؤية المبتورة لفكر الآباء تقودنا لنقطة أخرى؛ هل هناك فارق بين "ما كانه" الآباء، و"ما علّم به" الآباء؟ فأغسطينوس ويوحنّا الذهبي الفم وكبريانوس كانوا أساقفة يخضعون للتراتبيّة الكنسيّة المُستلمة من عصر الرسل الأُوَّل. فمَنْ أَقْبل عنه التعليم واتّخذه مرجعًا أساسيًّا لقناعاتي اللاّهوتيّة واستدلالاتي اللاّهوتيّة يجب أن أقبله كشخصٍ في إطاره الكهنوتي، وهو الأمر المرفوض بوضوح، لمَنْ يتتبّع الجذور اللاهوتيّة للتعليم البروتستانتي.

ولعلّ قانون الإيمان[1] الذي تعترف به معظم الكنائس هو خير دليل على قناعاتهم بضرورة الآباء (ولو بدون وعي)؛ فهو القانون الذي صاغه ونحت تعبيراته الآباء وأقرّته المجامع المسكونيّة المتعاقبة. يبقى أن يتحوَّل ذلك الإقرار "غير الواعي" بأهميّة الآباء إلى إقرار "واعٍ" وتعليم بما جاء على ألسنتهم من كلمات الروح.

التقليد الشامل

إنّ العلاقة بيننا وبين الآباء يحكمها ما يمكن أن نطلق عليه "جينات *Genes* التقليد"، فالابن يحمل جينات الأب والأب يحمل جينات أبيه، هكذا فإننا نحمل "الجينات الإيمانيّة" للآباء، وتلك الجينات لا تعني غياب تميُّزنا الشخصي ولكنها تُعْلِن انتسابنا لأصلٍ واحدٍ ومصدرٍ واحدٍ هو المسيح، رأس الجسد.

[1] قبل مجمع نيقيه كانت لكل كنيسة قانون إيمان هو أحد صيغ قانون إيمان الرُسُل، وكان يتلى في ليتورجيّة المعموديّة.

من هنا تأكيد الكنيسة على رفضها لمبدأ الاكتفاء بالكتاب المقدَّس وحده والمعروف في الأوساط العلميّة بالتعبير اللاّتيني *Sola Scriptura*. ولعلّ هذا الرفض يصدمنا في بادئ الأمر وكأنّ الكتاب لا يكفينا، ولكن الأمر يتعدّى تلك الرؤية السطحيّة والمبتورة؛ فالمسيحيّة ليست كلمات مُدوّنة ولكنها حياة متناقلة من جيلٍ إلى جيلٍ ومن عصرٍ إلى آخر. ولولا الهرطقات، كما أكّد الآباء، لما كنّا في حاجة إلى نصوص وكتابات تُعرِّف الإيمانيات، ولكنّا نَسْبَح في الخبرة والصلاة والتأمُّل والحياة، وما يلزم لذلك من كتابات ترقَى بالروح للمعاينة وترقَى بالجسد للإماتة.

إنّ المسيح لم يكتب ولم تعرف يداه الورق والقلم، ولكن كلماته الناريّة كانت بمثابة زلزلة للعقول الناعسة في سكون القناعات البالية، وللقلوب الجامدة التي انزوت في صخور التقاليد الجوفاء فصارت صخرًا لا يُحرِّكه النسيم ولا العاصف، فقط زلزلة كلمات الحياة هي القادرة على أن تشقّق تلك الصخور لتتفتَّت. ومَنْ لم تتفتَّت صخوره لا يصلح حجرًا في بناء المسيح. تلك هي الكلمات التي دونـها الإنجيليون وشرحها الآباء من واقع الخبرة.

لم يكتب المسيح حتّى لا يحصرنا في النصوص وأصالتها اللُّغويّة .. حتّى لا تُمثـِّل كتاباته امتدادًا لسطوة الحرف اليهودي في الناموس .. حتّى لا يترك لأعداء الإيمان مساحة من تشكيك البسطاء الذين لا يستطيعون تقييم الحُجج في ثوبها شِبه العلمي، التي يسوقها البعض لينال من الكتاب المُقدَّس ومن ثمّ ينال من المسيحيّة!! لذا فمن يتبنّى مبدأ الاكتفاء بالكتاب المقدَّس وحده، هو أسير فهم أحادي لنصٍّ مدوَّن، وليس تقليدًا حيًّا متناميًا ممتدًّا منفتحًا على الروح. فالروح يعمل في كلّ كلمة إلهيّة في كلّ عصرٍ.

ما بين العقيدة والرأي

من الضروري أن نُفرِّق بين الآراء الآبائيّة التي قد تتنوّع في قضيّة تفسيريّة أو روحيّة ما، وبين التحديد اللاّهوتي الذي أجمع عليه الآباء ولا يجب أن نخوض فيه من جديد. فمثلاً؛ نجد أنّ الآباء فسّروا الكتاب المُقدَّس، وقد تنوّعت آراؤهم في العديد من القضايا، ولكنـّها لم تكن قضايا تمسّ اللاّهوت من قريب أو من بعيد. وفي سياقٍ آخر، لقد كتب الآباء في مواضيع طبيّة وفلسفيّة كانت قائمة على العلم المعروف آنذاك، لذا لا نستطيع أن نأخذ عنهم عِلمًا يُعبِّر عن نتاج عصرهم، وخاصة بعد التقدُّم الهائل في العلوم في زمننا المعاصر.

نقرأ في الرسالة التي بعث بها القديس أغسطينوس إلى يوناريوس Januarius أنّ التنوُّع في طرق العبادة المتباين من مكان لآخر، هو بمثابة مساحة من الحريّة تركتها الكنيسة لتقنين العبادة في الكنائس المحليّة. فهناك مَنْ يصومون السبت[٢]، كما جاء في الرسالة، وهناك مَنْ يقيمون الإفخارستيا يوميًّا[٣]، وهناك مَنْ يتناولون يوميًّا، وهناك من يتناولون في أيامٍ بعينها دون الأخرى. كلّ تلك الأمور هي "مسألة حريّة" *a matter of freedom* بحسب تعبير القديس أغسطينوس. وانطلاقًا من هذا المبدأ، يؤكِّد سقراط المؤرِّخ في عمله "تاريخ الكنيسة" (القرن الخامس)، على أنّه من الأمور القابلة للتعدديّة بين كنيسة وأخرى؛ تحديد الأصوام وعزوبة الإكليروس وتحديد تاريخ الفصح للاحتفال[٤]. لذا نجد تنوُّع في التعبير اللِّيتورجي ما بين الكنائس المشتركة في الإيمان عينه، ولكن يبقَى الإيمان المُعبَّر عنه ليتورجيًّا هو إيمان واحد.

ولعلّ من الأمور اللاّفتة للنظر هو صياغة القانون العشرين من قوانين مجمع نيقيه والذي نصّه: "لقد استحسن المجمع المُقدّس هذا، بعدما رأى أن البعض يركعون أيام الآحاد وأيام الخمسين، ولكي يكون النظام موحّدًا، أن تُرفع الصلوات لله في هذه الأيام، ونحن منتصبون وقوفًا". فهو قانون يستحسن توحيد الشكل التعبُّدي ولكنّه لم يبسل أو يحرم مَنْ يُخالِف، وهو ما يعطي انطباعًا عن حريّة الممارسة مع التأكيد على أهميّة توحيد الفكر التعبُّدي للكنائس المسيحيّة.

> إنّ ما لا يناقض الإيمان ولا يعارض القيم الأخلاقيّة
> يجب أن ننظر إليه كأمر مرن،
> ويجب علينا أن نراعيه في سياق الشركة
> التي نحن أعضاء بها
>
> القديس أغسطينوس

قراءة النصوص الآبائيّة لكي تحقِّق غايتها المنشودة في تشكيل وعينا وقناعتنا اللاّهوتيّة، يجب أن تكون قراءة واعيّة بالفكر المسيحي العام والفكر الكتابي العام، مع مراعاة التحديّات الكنسية الناشبة آنذاك، فضلاً عن المدلولات اللُّغويّة للُّغة المُستخدمة، وكذلك الاطّلاع على الحركة الثقافيّة السائدة في مجتمع الأب الذي نُطالِع كتاباته. ولكن قبل كلّ شيء، استرجاع حياة وسيرة الأب أثناء القراءة ..

[٢] لم يكن قد صدر بعد، القانون الذي يمنع صوم السبوت والآحاد.

[٣] إنّ الاحتفال الليتورجي بالإفخارستيا يتباين من كنيسة لأُخرى من حيث عدد أيام الاحتفال على مدار الإسبوع، حتّى الآن.

[٤] تختلف الكنائس الرسوليّة في موقفها من عزوبة الإكليروس، فبينما تسمح الكنيسة القبطيّة بالزواج للإكليروس (الكهنة)، نجد الكنيسة الكاثوليكيّة تمنعه عن مُباشري العمل الكهنوتي. وكذلك الأصوام التي يختلف تحديدها من كنيسة لأُخرى بل ومن عصرٍ لآخر.

لقد كتب جون هيدلي في تقديمه لكتاب: "كتيب الباترولوجي" *Manual of Patrology* لمؤلِّفه برنارد شميد Bernard Schmid قائلاً: "إنك لتجد في سيرة كلّ من آباء الكنيسة، مُحفِّز .. قوّة دافعة للعِلم والمعرفة ... لذا فلكي تتعرَّف على الآباء يجب أن تقرأ سيرهم مُرفقة بكتاباتهم؛ فكلٌّ منهما يُلقي بالضوء على الآخر. إنّ أفضل وسيلة لفهم أحد الكُتّاب هي فرادته، وشخصيّته، علاقاته الشخصيّة، محيطه. ومهما قيل عن الطريقة التي كتب بها الآباء فإنّ هناك شيئًا يقينيًّا وهو أنـّهم تميّزوا بالأصالة الأدبيّة في استخدامهم للُّغة، فضلاً عن الوضوح والقوّة ورهافة الأسلوب وجماليات التعبير. وقد كان للعديد منهم سمات فريدة في الكتابة؛ كغريغوريوس النزينزي ويوحنّا الذهبي الفم، اللّذان لا تستطيع أن تُخطِئهما على الإطلاق."

ما بين الآب والأب

كانت هناك قاعدة في المجامع التي تلت مجمع نيقيه وهي: "إن قانون إيمان مجمع نيقيه كافٍ للحُكْمِ على أرثوذكسيّة أي تعليم".

كما كان القديس كيرلس الكبير كثيرًا ما يستهلّ كلماته بالعبارة الآتية: "آباؤنا المغبوطون علّمونا". لقد أراد بهذه العبارة التأكيد على أنـّه لم يأتِ بجديد، وأنّ ما يعيد صياغته وفقًا لمتغيّرات عصره لم يخالف ما تسلّمه، ولكنه يبني عليه. فالبناء الآبائي قائم على أساس واحد هو المسيح؛ رأس الزاوية.

ولكن مَنْ هو المسيح؟

فَهْمُ المسيح هو ما كان يحميه الآباء من تشويهات الهراطقة وادعاءات الجهَّال، « كي لا نكُون فيما بعد أطفالاً مُضطربينَ ومحمولينَ بكلّ ريح تعليمٍ، بحيلة النّاس، بمَكْرٍ إلى مَكيدة الضَّلال » (أفسس ٤: ١٤).

لم يكن تعبير "الآباء" وليد الصدفة؛ فلقد أسميناهم آباء لأنهم ولدونا من الروح في المسيح من خلال كرازتهم وتعاليمهم، وبذلك صرنا أبناء شرعيين لآباء شرعيين أجمعت عليهم الكنيسة، لا كالهراطقة الذين وَلَدوا لهم بنينًا من رحمٍ آخر غير كلمة الله الحيّة والباقية إلى الأبد.

كثيرًا ما نقرأ في كتابات الآباء العبارات التالية: نحن نؤمن .. كما قال المسيح .. كما تسلّمنا من الرُسُل .. كما تؤمن الكنيسة .. كما تُعلِّم الكنيسة .. إلخ، وهي كلّها عبارات تؤكِّد على أنّ الآباء لم

يكونوا أفرادًا منعزلين يُخلِّقون إيمانًا ولاهوتًا، ولكنهم كانوا امتدادًا حيًّا لمَنْ سبقوهم، كما أنّهم بذارٌ حيّة لنا نحن الذين جئنا من بعدهم.

لذا فقد كان لآبائنا، آباءٌ، تتلمذوا عليهم وقبلوا الروح من أفواههم. لم يبزغوا فجأة في سماء الكنيسة، ولكنّهم عرفوا كيف يتتلمذوا، لذا صاروا فيما بعد مُعلِّمين.

إنّ الأمور التي نتعلّمها في الصبا
تنمو مع النفس وتصبح معها واحدًا.
فأستطيع هكذا أن أقول
في أي مكان كان الطوباوي بوليكاربوس يجلس للتحدُّث. كما أذكر كيف كان يدخل ويخرج ويعيش،
وأيًّا كان منظره الطبيعي ومحادثاته إلى الجماعة،
وكيف كان يتكلّم على علاقاته بيوحنّا
وبالآخرين الذين رأوا الربّ،
وكيف كان يُذكِّر بأقوالهم،
وما هي الأمور التي سمعها منهم
بشأن الربّ ومعجزاته وتعليمه،
وكيف حصل بوليكاربوس على كلّ ذلك
من شهود عيان على كلمة الحياة،
وكان يرويها وفقًا للأسفار المُقدّسة،
وتلك الأمور أيضًا بالرحمة الإلهيّة التي صُنعت إليّ، أصغيت إليها بعناية،
محافظًا على ذكرها،
لا في الورقة، بل في قلبي.

القديس إيريناؤس

كانت عادة قديمة أن يكون المُعلِّم أبًا لتلاميذه، لذا فقد خاطب القديس بولس أهل كورنثوس في رسالته الأولى قائلاً: « لأنّه وإن كان لكم ربواتٌ من المرشدين في المسيح، لكن ليس آباءٌ كثيرون. لأني أنا ولدتكم في المسيح يسوع بالإنجيل » (١كو٤: ١٥).

من يتعلَّم من فمٍ آخر،
فإنّه يُدعَى له ابنًا،
كما يُدعَى الأخير له أبًا

القديس إيريناؤس

والآباء هم الأقرب زمنيًّا لعصر المسيح، يفصلهم عنه بضعة أجيال. منهم مَنْ تتلمذ على تلاميذه المباشرين وذهب ينقل الخبر والخبرة إلى الكنيسة، ومَنْ صار منهم مُكرَّس القلب والذهن تسلَّم من التلاميذ عصا الرعاية، لتبقَى الخبرة منقولة فمًا لأذن، لتشرح وتُفسِّر ما يختلط على البعض من نصوص دوّنها التلاميذ الأوائل.

الكلمات وليدة النفس.
لذا ندعو أولئك الذين علّمونا، آباء ..
وكلّ من تعلَّم هو بمثابة ابن لمعلِّمه

القديس كليمندس السكندري

إنّ البعض يتردَّد في قبول مصطلح الآباء استنادًا إلى كلمات الإنجيل القائلة: « ولا تَدْعُوا لكم أبًا على الأرْضِ، لأنّ أباكم واحدٌ الذي في السّماوات » (مت٢٣: ٩). وهذا يدفعنا للتساؤل عن مخاطبة الآباء الجسدانيين بهذا اللّقب؛ فمَنْ منّا لم يدعُ أباه الجسدي: أبي!! هل في هذا النداء الحميمي والذي يُوصِّف العلاقة بين الابن والوالد ما يُناقِض تعاليم المسيح؟؟ إنّ هذا الأمر يلقي بظلاله على إشكاليّة الفهم الحرفي للنصوص الكتابيّة والذي يُصدِّر وجهًا للمسيحيّة به سمات الأصوليّة.

ومَنْ يقرأ السياق الذي وردت فيه كلمات المسيح يُدرِك تمامًا أنّ الخطاب كان موجّهًا للكتبة والفريسيين نقدًا وإدانةً لممارساتهم الزائفة؛ فهُم يُحبّون أن يظهروا في الطرقات بملابسهم الفخمة وأهدابهم الطويلة وعصائبهم العريضة على جباههم، ليدعوهم الناس: سيّدي سيّدي "رابي رابي"، إرضاءً لغرورهم الزائف. لذا كانت كلمات المسيح واضحة وقاطعة أنّ المُعلِّم والسيِّد هو المسيح الواحد مع الآب، ومن الآب تستمد كلّ أبوّه قيمتها.

كما يُوجد فارقٌ كبيرٌ بين مَنْ يمشي بصولجان العظمة ليستقطب مديح وإعجاب وتكريم الآخرين، وبين مَنْ نالوا التكريم بعد نياحتهم. فتقنين مُصطلح "آباء الكنيسة" جاء في مرحلة لاحقة بعدما انتقل هؤلاء الآباء إلى الأقداس العُليا، وتمّ تقييم تعاليمهم على ضوء الإجماع الكنسي ونقاوة الحياة كما أسلفنا.

هناك دائمًا خلط يحدث حينما يُستخدم التعبير بمعنَى مزدوج؛ فمثلاً نجد أن المسيح أعلن عن نفسه كـ "نور العالم"، ولكنّه دعَى المسيحيين أيضًا "نور العالم"، هل هذا يعني أنّ المسيحيين متطابقين مع المسيح؟ بالطبع لا. كذلك نجد أنّ المسيح هو "الكرمة الحقيقيّة"، والعذراء تُلقِّبها الكنيسة بـ "الكرمة الحقيقيّة"، فهل العذراء مساوية للمسيح؟ بالطبع لا. لذا من الضروري أن نُفرِّق

بين التعبير النسبي والتعبير المطلق لنفس الكلمة، لنستطيع أنْ نتعرّف إلى فكر المسيح المُدوَّن في الكتاب المُقدَّس.

يروي لنا جان بوتي في كتابه "الله أبونا" أنّ الرابيين أرسلوا إلى رابي حنّان حفيد رابي هوني، لكيما يُصلّي من أجل الأمطار، فلما جاءه التلاميذ أمسكوه من أهداب ثوبه قائلين: "أبَّا أبَّا، أعطنا المطر!" فما كان منه إلاّ أن صلَّى قائلاً: "يا سيّد الكون، افعل هذا لهؤلاء الذين لا يعرفون أن يميِّزوا 'الأبَّا' الذي يستطيع أن يمنح المطر، و'الأبَّا' الذي لا يستطيع." فالاثنان آباء؛ ولكنّ ما بين أبوّة الله وأبوّة البشر بونٌ شاسع.

وفي التقليد اليهودي نجد أنّ مُصطلح "الآباء" نعني به، بالدرجة الأولى، الآباء الأُوَل؛ إبراهيم واسحق ويعقوب، فضلاً عن الآباء القدامَى الذي جاء ذكرهم في المشناه اليهوديّة تحت عنوان أقوال الآباء *Pirqe Aboth*.

وفي العهد الجديد نجد أنّ داود هو « رئيس آباء » (انظر: أع٢: ٢٩). كما كان كلّ الشعب الفار من مركبات فرعون هم أيضًا « آباء » (انظر: ١كو١٠: ١).

وفي المشناه اليهوديّة، كان اللَّقب الذي يُدعَى به كلّ من شمَّاي وهلِّل صاحبي المدرستيْن الأشهر في التأثير على المجتمع اليهودي قبل ولادة المسيح هو: "آباء العالم"، وهو نفس اللَّقب الذي أُطلق على رابي عقيبا ورابي إسماعيل فيما بعد. وقد كان لقب "أب" يُعطَى لمؤسّسي المدارس اليهوديّة من الرابيين الكبار حسبما جاء في تفسير *Pulpit* على إنجيل متّى.

وبحسب الموسوعة اليهوديّة، كتب سولومون شختر Solomon Schechter وكاسبر ليفياس Caspar Levias أنّ موسَى يُدعَى "أبو الحكمة / أبو الأنبياء" كما كان رابي هوشعيا "يُدعَى أبو المشناه".

لذا فالأبوّة التي رفضها المسيح هي الأبوّة المذهبيّة والتي تنتمي لأحد المدارس اليهوديّة القديمة، تلك التي كانت تستقطب اليهود لتعيد صياغة فهمهم لنصوص العهد القديم وأوامره ونواهيه. لذا فرّق المسيح بين ما هو من موسَى وما هو من الآباء؛ « لهذا أعطاكم موسَى الختان، ليس أنّه من موسَى بل من الآباء، ففي السبت تختنون الإنسان » (يو ٧ : ٢٢). وفي الخطبة التي ألقاها الشهيد إستفانوس قبيل استشهاده، دعى الحاضرين: « الأخوة والآباء » (انظر: أع ٧: ٢)، وهو نفس التعبير الذي استخدمه القديس بولس (انظر: أع ٢٢: ١). كما ذكر القديس بولس والقديس يوحنّا، «الآباء»، في سياق الحديث عن العَلاقة بين الأب وبنيه (انظر: أف ٦: ٤؛ ١يو ٢: ١٣ ـ ١٤).

ومن الشهادت المُبكّرة، نقرأ في وثيقة "شهادة بوليكاربوس" (٧٠م ـ ١٦٦م) أنّ بوليكاربوس دُعي "أبو المسيحيين"؛ كما كان يُخاطِب أوريجانوس، بعض الأساقفة بكلمة "بابا"، في حوراه مع هيراقليدس، وهو التعبير الذي أصبح يُعبِّر عن البطريرك السكندري أولاً، ومن بعده الروماني، حسبما جاء في "موسوعة المسيحيّة" *The Encyclopedia of Christianity* في جزئها الأوَّل. ويُحدِّث كليمندس الروماني، الكورنثيين، داعيًا إياهم للعيش في وئامٍ؛ "متناسين الإهانات، سالكين في المحبّة والسلام، ثابتين على الرصانة، في كلّ ظرفٍ، نظير آبائنا (يقصد الرسل) الذين أظهرنا لكم مَـثـَـلَهم".

ومن الجدير بالذكر أنّ تلك الكلمة كانت مُستخدمة في دوائر تعليم الفلاسفة مثل؛ فيثاغورث وسينيكا.

يُطالِعنا ديفيد ل. هولمز David L. Holmes بعنوان لمقالٍ مثير للدهشة: "هل لقب الأب / الأم يصلح للقادة البروتستانت؟" وهو المقال الذي نشره في عدد ديسمبر من دوريّة "القرن المسيحي" *The Christian Century*. ومن اللاّفت للنظر أنـه أكّد، في المقال، أنّ بعض الكنائس البروتستانتيّة في بداياتها التكوينيّة أطلقت على مؤسِّسيها لقب "أب" ومنهم جون ويسلي مؤسِّس الميثوديست والذي أطلقوا عليه لقب "الأب ويسلي". ويكمل في مقالاته أنّ لفظة "أب" قد تلاشت من القاموس البروتستانتي الحديث كنتيجة لحصول القادة البروتستانت على درجات علميّة فصار لقب من حصل على الدرجة العلميّة؛ "دكتور" وجاءت كلمة "راعٍ" لتتماشَى مع السند الكتابي الذي يبحثون عنه في مواقفهم وقناعتهم الإيمانيّة، حسبما كتب.

وفي بحثنا عن استخدام الكلمة بين الجماعات البروتستانتيّة يجب أن نُراعي أنّ المواقف البروتستانتيّة مختلفة من طائفةٍ لأخرى ومتباينة من مجتمعٍ لآخر، فاللّفظة تبقَى خيار الجماعة وليست قانونًا يسري على الجميع. من هنا يمكننا أن نلمح أن الرفض المعاصر لكلمة "أب" لم يكن موقفًا أيديولوجيًّا بروتستانتيًا منذ عهد التأسيس ولكنّه تحوُّلٌ حديثٌ نسبيًّا، ممّا يغلق الجدل حول إمكانيّة استخدام الكلمة من عدمه. فالإشكاليّة البروتستانتيّة مع الآباء هي في دور الأب في الكنيسة ومدى "سلطة" كلماته في التعبير عن الإيمان والحياة.

الآباء والنصوص اللّيتورجيّة

لم يكتفِ الآباء بالتعاليم والكتابات الإرشاديّة ولكن امتدّ تأثيرهم إلى الصلوات التعبديّة الليتورجيّة. فقد كان التلامس الآبائي مع الحقّ والذي أفرز لنا تلك النصوص الرائعة هو ما دعا الكنيسة لأخذ بعض تلك النصوص لتصير لها صلاة.

إنّ الصلاة اللّيتورجيّة في مُجملها تحمل بُعديْن لا ينفصلان؛ البُعد التعبُّدي والبُعد العقائدي. فما من نصٍّ ليتورجي تعبدُّي لا يحمل رسالة عقائديّة واضحة. فلم تكن الصلوات الليتورجيّة في أي عصر من العصور تفريغ لشحنات عاطفيّة في قلوب المؤمنين فقط، ولكنها كانت وماتزال انطلاقًا لمعاينة الثالوث، وحينما يتواجه المُصلِّي أمام الثالوث ينسَى ذاته ويتأمَّل في الجمال الإلهي، فتحمل كلماته مفردات ثالوثيّة تبدو للوهلة الأولى أنـّها مُعقّدة ولكنـّها في الأساس هي نتاج معاينة قلبيّة صادقة لمجد الثالوث. ومَنْ يتأمَّل في الثالوث لا يستطيع إلاّ أن يُدرِك بوعي مُسبِّح قيمة التجسُّد والمساواة الأقنوميّة تلك التي تُعطي للتجسُّد قيمة عُظمَى، فضلاً عن أقنوميّة الروح القدس الذي يُحرِّك الصلاة ويُحرِّك معها قلب الإنسان نحو مدينة الله السرمديّة. هذا فارقٌ بين صلواتنا المُعاصرة وصلوات الآباء والتي صارت صلوات الكنيسة.

كذلك نجد أنّ الصلاة المُعاصرة تُركِّز على الإنسان وآلامه واحتياجاته وأتعابه (الفرديّة) ويأتي الله كمريح لأتعاب الإنسان (الفرد)، وهنا يبقَى الله حلّ للإنسان (الفرد). ولكن الصلوات اللّيتورجيّة / الآبائيّة هي صلوات تتأمَّل في الله، وإن جاز القول، تُحدِّق في نور الثالوث والأقانيم الثلاثة، فتأتي صلاتها تسبيحًا لعمل الله في ذاته، ومن ثمّ العمل المرتبط بالإنسان.

لذا من الضروري أن نفرِّق بين الصلوات الخاصة والصلوات اللّيتورجيّة التي يجتمع عليها المؤمنون معًا. في صلواتنا الخاصة نستخدم تعبيراتنا ونشكو آلامنا ونطلب حلولاً خاصة بنا ونتلمّس الله على قدر قامتنا وطاقتنا .. إلخ وفي المقابل يتفاعل الله مع صلواتنا على خلفيّة معرفته الخاصة بنا. ولكن تبقَى تلك الصلوات في دائرة الخصوصيّة لأنـّها تُعبِّر عن شخصٍ مُفرد ولكنّها لا تُعبِّر عن الجماعة. على الجانب الآخر فإنّ الصلاة اللّيتورجيّة هي الصياغة التي هذَّبها الروح لتنمية وعي كتابي خلاصي مُتكامِل لتصِر أساسًا صلبًا لأيّة صلاة خاصة أو شخصيّة فيما بعد. والخلط بين ما هو شخصي وما هو ليتورجي هو أحد الأخطار التي تواجه عبادتنا المسيحيّة.

كذلك نجد أنّ الصلاة المُعاصرة تُفتتّت البشريّة إلى أفراد لكلٍّ حاجته، بينما الصلاة اللّيتورجيّة ترى الجرح الإنساني العام والمُسبِّب لتمزُّق الإنسان وآلامه المُعاصره؛ فالخطاب الأول، الـ "أنا" فيه تعني الشخص المُفرد، بينما الثاني فإن الـ "أنا" فيه تعني البشريّة الساقطة. فالليتورجيّة تُحيل أتعاب الإنسان إلى السقوط وتبعاته، بينما الصلوات المعاصرة يغيب عنها في الكثير من الأحيان تلك النقطة فتبدأ بسرد أتعاب الإنسان الجُزئيّة وتكتفي بأن لله حلاً لكلّ تعب إنساني دون أن تستند على الفعل الخلاصي فتُصدِّر وعيًّا مسيحيًّا منقوصًا معني بمعالجة الأعراض الظاهرة دون الولوج إلى أصل المرض وموطن الداء. من هنا نرى أن الخطاب اللّيتورجي مُتكامل الرؤيّة لماهيّة الإنسان وماهيّة الله وكيف تمّ الصُلح بين الله والإنسان بـ "تجسُّد / موت / قيامة" المسيح يسوع، ومن هذا الحدث نبتت شجرة النِعَم الإلهيّة لكلّ البشريّة أينما كانوا وأيّما كانت حالتهم.

كأب حقيقي تعبت معي أنا الذي سقط.

أرسلت لي الأنبياء من أجلي أنا المريض ...

ليتورجيّة القديس غريغوريوس اللاّهوتي

في النصّ اللّيتورجي نجد أن المحوّر هو دائمًا الـ "أنت" (الله) وليس الـ "أنا" (الإنسان). إنّ هذا ما يُميِّز التسبيح اللّيتورجي، فالتغنِّي بالله وأعماله هو ملمح ليتورجي أصيل.

أنت الذي خلق السماوات وما في السماوات ...
أنت هو الذي خلق الإنسان كصورتك وكشبهك

ليتورجيّة القديس كيرلُّس الكبير

أنت الذي تُسبِّحك الملائكة وتسجد لك رؤساء الملائكة
أنت الذي تُباركك الرؤساء وتصرخُ نحوك الأرباب
أنت الذي، السلاطين، تنطق بمجدك
أنت الذي، الكراسي، تُرسِل لك الكرامة ...
أنت الذي يُباركك غير المرئيين
وأنت الذي يسجد لك الظاهرون ...

أنت هو القيام حولك الشاروبيم والسارافيم ...

أنت يا سيدي حوّلت لي العقوبة خلاصًا ...

أنت الذي أرسلت لي الأنبياء من أجلي أنا المريض ...
أنت الذي خدمت لي الخلاص ...

أنت الكائن في كلّ زمان ...

أنت الذي أعطيتني هذه الخدمة المملوءة سِرًّا

ليتورجيّة القديس غريغوريوس اللاّهوتي

من مميزات النصّ اللّيتورجي عن النصوص التعبديّة الحديثة[٥] هو ظهور المسحة الخلاصيّة بوضوح؛ أي قصة الفداء الإلهي للإنسان الساقط والجالس في الظلمة وظلّ الموت. داخل هذا الإطار برع الآباء في نصوصهم؛ منهم مَنْ استرسل في شرح المسيرة الخلاصيّة كالقديس غريغوريوس اللاّهوتي، ومنهم مَنْ اكتفَى برسم ملامحها الأساسيّة كالقديس باسيليوس الكبير في "صلاة الصُلح"، وأيضًا في "الأنافورا" بحسب الطقس السكندري.

قدوس قدوس قدوس أيها الربّ إلهنا
الذي جبلنا وخلقنا ووضعنا في فردوس النعيم [الخِلقة]
وعندما خالفنا وصيّتك بغواية الحيّة
سقطنا من الحياة الأبديّة ونفينا من فردوس النعيم [السقوط]
لم تتركنا عنك أيضًا إلى الإنقضاء
بل تعهدتنا دائمًا بأنبيائك القديسين [النبوّات عن المسيّا]
وفي آخر الأيام، ظهرت لنا
نحن الجلوس في الظلمة وظلال الموت
بابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومُخلّصنا يسوع المسيح
هذا الذي من الروح القدس
ومن العذراء القديسة مريم تجسّد [التجسُّد]
...
هذا الذي أحبّ خاصته الذين في العالم
واسلم ذاته فداء عنّا إلى الموت الذي تملّك علينا .. [موت المسيح]
نزل إلى الجحيم من قِبـَل الصليب
وقام من الأموات .. [القيامة]

[٥] لسنا هنا بصدد تقييم النصوص ولكن فقط تمييز وتوصيف ملامح كلّ منها، ولعلّ هذا الأمر يحتاج إلى دراسة منفردة.

وصعد إلى السماوات .. [الصعود]

ورسم يومًا للمجازاة .. [يوم الدينونة]

ليتورجيّة القديس باسيليوس (الأنافورا) بحسب الطقس السكندري

ومن النصوص المباشرة والتي تحوّلت إلى نصّ تعبُّدي ليتورجي؛ جزءٌ من الخطاب الذي ألقاه القديس كيرلُّس السكندري في جلسة المجمع المُنْعَقِد بمدينة أفسس (٤٣١م) والذي ورد في "لُبش السبت" من تسبحة نصف الليل:

السلام لك يا ممتلئة نعمة،
العذراء غير الدنسة،
الإناء المختار،
لكلّ المسكونة
المصباح غير المُطفأ،
فخر البتوليّة،
الهيكل غير المُنْقَض،
وقضيب الإيمان.

في بحثٍ للدكتور مجدي رشيدي عن مؤلِّف الثيؤطوكيات القبطيّة السبع، والذي نشره في مجلّة "مدرسة الإسكندريّة" وفي عددها الصادر في مايو ٢٠١٠ يتحدّث عن النصّ القبطي الذي نشره العالِم أوسكار ليم Oscar Lemm والمنسوب للقديس أثناسيوس الرسولي، إذ يحمل بعض التعبيرات والفقرات التي نجدها في ثيؤطوكيّة الأحد في التسبحة السنويّة، إذ جاء النصّ، في بعض فقراته، هكذا:

بالحقيقة أنت مرتفعة، أيتها العذراء المُكرَّمة،
على كلّ العظماء
لأنّه ماذا يشبه عظمتك، يا مسكن الله الكلمة؟
مع مَنْ يجب أن أشبِّهك، أيتها العذراء، بين كل الخليقة؟
سوف لا نجد شيئًا مرتفعًا عنك،
إلاّ سوف تكوني أنت مرتفعة عن الجميع؟
هل ينبغي أن أقارنك مع ثمار الأرض وكلّ مواليدها؟
أنت مرتفعة عن جميعهم
عندما نقول إنّ ملائكة الله ورؤساء الملائكة هم مرتفعون،
لكن أنت مرتفعة أكثر بكثير عنهم جميعًا،

لأنّ الملائكة ورؤساء الملائكة يخدمون بخوفٍ
الذي سكن في بطنك،
لدرجة أنّهم لا يتكلّمون بجسارةٍ قدّام الله ويتحيّرون،
لكن أنت تتكلّمين معه بدالةٍ
عندما نقول: الشاروبيم مرتفعون،
أنت مرتفعة أكثر منهم جميعًا،
لأن الشاروبيم يحملون عرش الله،
ولكن أنت بالمقابل حملت الله على ذراعيك
عندما نقول: السارافيم مرتفعون،
أنت مرتفعة أكثر منهم جميعًا،
لأنّ السارافيم يُغطُّون وجوههم بأجنحتهم،
لأنـّهم لا يستطيعون مشاهدة كمال المجد،
لكن أنت، لست فقط تطلّعت إلى وجهه،
وإنما احتضنتيه وأعطيتيه ثدييك في فمه المُقدَّس.
[...]
أيّتها التابوت الذي للعهد الجديد
الذي في وسطه القسط الذهبي
الذي في وسطه المنّ الحقيقي،
الذي هو جسدُ الابن، الذي مُخفَى فيه اللاّهوت.
[...]
لأنك أنت (العذراء) احتملت آلام الولادة لأجل حياة العالم ولكن حواء، في المقابل، هي أم الموتَى،
لأنـّه كما يموت الجميع في آدم،
سوف يحيا الجميع في المسيح.

إنّ من الأمور التي يلاحظها مَنْ يرصُد التعبيرات اللاّهوتيّة الواردة في نصوص الثيؤطوكيّات السبع أنّ الروح الآبائيّة قويّة وواضحة ومُميّزة فيها، ممّا يعود بنا مُجدَّدًا إلى التأثير الآبائي في النصّ اللّيتورجي بشكلٍ مباشر أو غير مباشر.

التجدُّد والعودة إلى الآباء

إنّ علم الباترولوجي Patrology هو الدراسة المنهجيّة لما ورد إلينا من نصوص قديمة لآباء الكنيسة والبحث في أصالتها وتاريخها، لإعادة فهمها في السياق اللاّهوتي. لذا فهو علمٌ معني بوضع الضوابط لتحديد "الأب" كنسيًّا، وأصالة النصّ الوارد عنه، والاستخدام الأمثل لكتاباته في فهم اللاّهوت. وهو هنا يختلف عن دراسة تاريخ الأدب المسيحي المُبكِّر الذي يتناول تلك الفترة التي تتّسع لتشمل كلّ الكتابات المسيحيّة على مختلف اتجاهاتها.

يكتب مايكل كاسي Michael Casey فيقول: "لقد كتب الآباء ليساعدوا الآخرين ليقتربوا فيتلامسوا مع تعاليم المسيح. وعلى قدر معرفتي، لم يكن اللاّهوت وظيفة ولا عملاً في الألفيّة الأولى. ولكنه كان مُصاحبًا ومُلازمًا للعمل الرعوي .. انطلاقًا من تلك الرؤية، فإنّ النصوص التي دُوِّنت كانت نابعة من الواقع ولها سمة الاختبار والبُعد التطبيقي".

أمّا توماس أودِن Thomas Oden رئيس تحرير مجموعة "التفسير المسيحي القديم على النصّ الكتابي"*Ancient Christian Commentary on Scripture* فقد كتب عن رؤيته الأوليّة للاّهوت قبل أنّ ينضج في الوعي الروحي قائلاً: "كنت قد تعلَّمت أن اللاّهوتي هو مَنْ يجب أن يُصارِع ليُخلِّق ما هو جديد في اللاّهوت ... وأن أرى الأمور من منظور مُغاير لم يَرَ به الناس، الأمور من قبل، وبالتالي تقديم مهارتي الشخصيّة وخبراتي الذاتيّة كلاهوتي، للعالم".

وبعد أنّ اطلّع أودِن على نصوص الآباء لمدّة خمس سنوات اكتشف أن ما كان يظنّه إسهامًا جديدًا في اللاّهوت قد سبقه إليه الآباء بعدّة قرون!!

وفي موضعٍ آخر قال: "لقد أعادت دراساتي لنصوص الآباء تشكيلي روحيًّا ولاهوتيًّا. حتّى بداية السبعينيات من القرن الماضي، كنت لاهوتيًّا ليبراليًّا، استخلص تعليمي المسيحي من الفرضيات الحديثة. ولكن إبّان ذلك الوقت وجدت أنّ تلك النظريات والفرضيات بدأت تتداعَى، وفي المقابل بدت لي النصوص الكلاسيكيّة والتقليديّة أكثر تماسكًا وحكمة. في تلك الفترة، كان انتمائي السياسي للمذهب الماركسي، وقناعتي السيكولوجيّة مؤسّسة على تعليم فرويد، وكانت مواقفي على الحياد من جهة الأحكام الأخلاقيّة. وبدأت في قراءة النصوص المسيحيّة القديمة، وبالأخص كتابات أثناسيوس وجيروم. وحتّى ذلك الوقت كنت قد نلت حظًا وافرًا من العِلم، ولكن لم يلفت أحد نظري إلى تلك الكتابات قط".

ويوافقه بوسيُه Boissuet في نفس الرأي، فهو يرى أنّ؛ "مَنْ يريد أن يصير لاهوتيًّا بارعًا، عليه أن يُطالِع آباء الكنيسة أولاً وثانيًا".

إنّ تلك الرؤية تخالف رؤية مارتن لوثر التي طرحها في كتابه "قيد الإرادة"، إذ رأى أنّ الآباء قد أغفلوا عمدًا كلمات القديس بولس الواضحة (من وجهة نظره)، لذا ليست هناك ضرورة لقراءة الآباء!! بل وذهب إلى أنّ الآباء ليسوا مصدر ثقة!!

في الكلمة التي ألقاها روبرت لويس ولكن Robert Louis Wilken في عام ٢٠٠٩ بمناسبة افتتاح مركز ويتون للدراسات المسيحيّة الأولى *Wheaton Center for Early Christian Studies* والذي تزاحم فيه مئات الإنجيليين للتسجيل لتلك الدورة، قال ولكِن Wilken إنّ معظم الطلبة الذين درسوا على يديه الآبائيّات في جامعة فرجينيا كانوا من الإنجيليين، ويعزي هذا إلى نهمٍ في العودة إلى النهر الأصيل الخارج من نبع مياه الإنجيل. ويضيف أنّ نصوص الآباء تحتوي كمًّا هائلاً من النصوص الكتابيّة[٦] ممّا أدّى إلى إعادة نظر الإنجيليين في النصوص الآبائيّة.

هل تكون تلك الحركة بداية لتحرير نصوص الآباء ممّا لحقها من تشوُّه وسمعة سيّئة في العقليّة البروتستانتيّة؟ نتمنَّى ذلك. فالذكاء يقتضينا أن نبني على مَنْ سبقنا في كلّ المجالات.

لقد كتب العالِم الشهير إسحق نيوتن إن كلّ ما عمله كان مستندًا على أكتاف مَنْ سبقوه من العمالقة في العِلم.

على نفس القياس، نجد أنّ الخبرة الروحيّة والفهم اللاّهوتي هو عمليّة تراكميّة، ومن غير المفهوم أن نبدأ في مناقشة القضايا التي حسمها الآباء بعد سنوات من الحوار والاجتماعات المسكونيّة والصلاة والرجوع إلى السابقين ممّن تتلمذوا عليهم لتقديم اللاّهوت نقيًّا من شوائب الهرطقة. ومن غير المفهوم أن نبدأ في الحياة الروحيّة دون أن نستلم ممّن سبقونا أساسيات تلك الحركة نحو ملكوت الله، وما يعترضها من صعوبات وما يصاحبها من أفراح لازمنيّة.

مَنْ يريد أن يبدأ من الصفر يُصعِّب على نفسه المُهمّة؛ لأن الآباء هم إرشادٌ إلهيٌّ حفظته لنا الكنيسة ليدفعنا إلى المدَى الروحي في انطلاقة يصعب مماثلتها للمدافعين عن الخبرة الفرديّة. وهذا ما يُفسِّر العُمْق الذي تتميَّز به كتابات الآباء والذي نفتقده في الكتابات الليبراليّة المعاصرة؛ فكتابات

[٦] ومن الأمور الجديرة بالذكر أنّ الإنجيل كان موضوعًا في مركز القاعة التي كانت تضم الإمبراطور والأساقفة المجتمعين في نيقيه (٣٢٥م) إذ يبقَى الإنجيل هو المقياس لكلّ قول أو فكر يُطرَح من المجتمعين.

الآباء كانت نتاج خبرة تراكميّة، بينما كتابات العصر الحالي، في معظمها، هي نتاج خبرة فرديّة أحاديّة، لا تشبع ولا تغني.

كما يجب أن نُدرِك أن ما نستلمه من الآباء ليس حجْرًا على تفاعلنا الشخصي مع روح الله، واستلام دعوتنا الشخصيّة في خضمِّ الصلاة. ويبقَى الآباء ضمانتنا لعدم الانحراف عن المسار الصحيح لئلا تأخذنا النوايا الطيّبة إلى غايات ونهايات مأساويّة لافتقادنا الخبرة اللاّزمة لهذا الطريق المرصود من قوات الظلمة. ولعلّ التاريخ المسيحي يذكر لنا أنّ معظم الهرطقات التي ظهرت في الكنيسة الأولى، إن لم تكن كلّها، كانت نابعة عن غيرة إيمانيّة ونوايا طيّبة، حتّى تجمَّد مُطلقيها في قناعاتهم وحدهم ورفضوا الإنصات للجمع الآبائي. لذا علينا أن نُدْرِك أنّ الآباء ليسوا بديلاً عن الروح وليسوا بديلاً عن المسيح، ولكنهم أداة من أدوات الروح وإرشادًا لنا من المسيح؛ رفيقنا على دروب الملكوت.

تقنين "الآباء" بين الكنائس

في بحثنا عن التقنين الكنسي لحقبة الآباء علينا أن نلتفت إلى الكنائس الرسوليّة لنرى تقنيناتها وتعريفاتها لمَنْ هم الآباء.

في الكنيسة الكاثوليكيّة يمتد عصر الآباء حتّى إيسيذورس الإشبيلي (٦٣٦م) بينما يتوقَّف عند يوحنّا الدمشقي (٧٤٩م) في الكنيسة اليونانيّة، بحسب توصيف كواستن Quasten. إلاّ أن هناك اتجاهًا بإضافة كلّ من المُطوَّب الكاثوليكي بيد (٧٣٥م)، وبرنارد من كليرفو (القرن الثاني عشر) في الغرب. أمّا في الشرق يُضاف سمعان اللاّهوتي الحديث (١٠٢٢م) وغريغوريوس بالاماس (١٣٥٩م) ونيقولا كاباسيلاس (١٣٧١م) ومرقص الأفسسي (١٤٤١م) بينما في تقليدنا السكندري يمتد عصر الآباء حتّى مجمع أفسس (٤٣١م) مع إضافة ساويرس الأنطاكي (٥٣٨م). وهم الآباء الذين نذكرهم في مجمع القداس (بحسب اللّيتورجيا القبطيّة).

يكتب المطران كيرلس سليم بسترس في مؤلَّفه "تاريخ الفكر المسيحي" أنّ بابا روما بونيفاسيوس الثامن (١٢٩٥م) أطلق لقب "مُعلِّمي الكنيسة" Doctores Ecclesiae على آباء الكنيسة اللاّتينيّة (الذين كتبوا باللاّتينيّة) الأربعة: أمبروسيوس، وجيروم، وأغسطينوس، وغريغوريوس الكبير. ويضيف أنّ البابا بيوس الخامس (١٥٦٨م) مدّ اللّقب ليشمل آباء الكنيسة اليونانيّة (الذين كتبوا باليونانيّة): أثناسيوس، وباسيليوس، وغريغوريوس النزينزي، ويوحنّا الذهبيّ الفمّ.

إنّ الكنيسة الكاثوليكيّة تسبغ لقبًا خاصًا لبعض الآباء وهو "دكاترة (معلّمي) الكنيسة" Doctors of the Church. وهو اللَّقب الذي لا يستلزم عندهم القِدَم الكنسي كأحد معايير الحصول على هذا اللَّقب. لذا فإنها تُعطي هذا اللَّقب حتّى الآن. وها هو جدول للتقنين الكاثوليكي لدكاترة (معلّمي) الكنيسة *Doctors of the Church*، كما أورده برنارد مكجين في كتابه *Doctors of the Church*:

عصر الآباء	العصور الوسطى	العصر الحديث
أثناسيوس السكندري (٣٧٣)	البابا غريغوريوس الكبير (٦٠٤)	تريزا الأفيليّة (١٥٨٢)
أفرام السرياني (٣٧٣)	إيسيذورس من أشبيليّة (٦٣٦)	بطرس كانسيس (١٥٩٧)
هيلاري من بواتييه (٣٦٧)	بيد المطوَّب (٧٣٥)	يوحنّا الصليبي (١٥٩١)
كيرلّس الأورشليمي (٢٨٦)	يوحنّا الدمشقي (٧٤٩)	روبرت بيلارمن (١٦٢١)
باسيليوس الكبير (٣٧٩)	بطرس داميان (١٠٧٢)	لورنس من برنديزي (١٦١٩)
غريغوريوس النزينزي (٣٩٠)	أنسلم من كانتربري (١١٠٩)	فرنسيس دو سال (١٦٢٢)
أمبروسيوس من ميلان (٣٩٧)	برنارد من كليرفو (١١٥٣)	ألفونسوس دو ليجوري (١٧٨٧)
يوحنّا الذهبي الفم (٤٠٧)	أنطونيوس البدواني (١٢٣١)	تريزا من ليزيو (١٨٩٧)
جيروم (٤٢٠)	ألبيرت الكبير (١٢٨٠)	
أغسطينوس من هيبو (٤٣٠)	بونافنتور من باجنوريا (١٢٧٤)	
كيرلّس السكندري (٤٤٤)	توما الأكويني (١٢٧٤)	
بطرس الكريسولوجوس (٤٥٠)	كاترينا السينائيّة (١٣٨٠)	
ليو الأول (٤٦١)		

مُعلّمون آخرون (حسب التقنين الكاثوليكي):

عصر الآباء	العصور الوسطى	العصر الحديث
غريغوريوس النيسي	مكسيموس المُعترف	كاترين من جنوا
يوحنّا كاسيان	إسحق من نينوى	توماس مور
بوثيوس	سمعان اللاّهوتي الجديد	جريجنيون دو مونفور
	هوج من سان فيكتور	جون هنري نيومن
	هيلدجارد من بنجن	إدث ستين
	إيلريد من ريوفو	
	جرترود الكبير	
	غريغوريوس بالاماس	
	جوليان من نورويتش	
	برناردينو من سيينا	

ممّا سبق يمكننا القول بأنّ هناك مصطلحًا تقنيًّا مُتعارفٌ عليه شرقًا وغربًا لتوصيف الآباء وهو الذي يُشير إلى آباء القرون الأولى؛ ستّة قرون (التقليد السكندري)، سبعة قرون (التقليد الروماني الكاثوليكي)، ثمانية قرون (التقليد اليوناني)، وهذا التعبير يشير إلى الآباء الذي نحتوا مصطلحات العقيدة ووضعوا الأُسس الإيمانيّة استنادًا على الكتاب المُقدَّس والحياة اللّيتورجيّة والخبرة الروحيُة (الجمعيّة)، وهو ما يُميِّز آباء تلك الحقبة عن أيّة حقبة أُخرى، فالجذور الإيمانيّة التي ترسّخت في تربة الحقّ المسيحي غير مُتغيِّرة بمضي الزمن، وتبقَى الصياغات المُعبِّرة عنها هي المُتغيّرة بحسب اللُّغة والثقافة والتحديّات المُعاصرة التي تواجه الكنيسة.

إنّ الإيمان واحد
لا يزداد بكلمات مَنْ له القدرة على الحديث عنه باستطراد،
ولا ينقص لعدم قدرة البعض على الاستطراد في الكلام عنه

القديس إيريناؤس

يقول برنارد شميد Bernard Schmid في كتابه "كتيب الباترولوجي" على لسان اللاّهوتي الألماني مولر Mohler إنّه "يجب أن يكون هناك آباء طالما الكنيسة نفسها قائمة". وفي نفس السياق يروي دكتور ديفيد كلهونDavid Calhoun في محاضرته التي حملت عنوان: "شهداء الحقّ: آباء الكنيسة الأولى" والتي ألقاها في صيف ٢٠٠٦، أنّه أثناء حضوره أحد اللّقاءات المسكونيّة وبينما كان الحديث عن توقُّف عصر الآباء، وقف الأب جورج فلورفسكي وقال: "إنّ عصر الآباء لم ينته، فهئنذا حيٌّ أُرزق". وبالرغم من الصياغة التي أوردها جورج فلورفسكي في كلماته والتي تحمل بُعدًا ذاتيًّا؛ مُشخصنًا الامتداد الآبائي في ذاته، إلاّ أنّ ما أراد أن يوضِّحه أنّ عصر الآباء ممتد ولا يتوقَّف ..

من هنا يمكننا أن نفهم أنّ تعبير "آباء الكنيسة" بمعناه الأصلي يتضمّن الستة قرون الأولى (بحسب تقليدنا السكندري). ولكن امتداد هذا التعبير في توصيف الخبرة الكنسيّة التي تفرز لنا بين الآن والآخر آباء يحملون مشعل الحقّ، هو تعبير خاص بالكنيسة المحليّة والتي تكرِّمهم بنفس قدر تكريمها للآباء الأوَّل. فالروح العامل في الكنيسة يُجدِّد فيها المواهب الروحيّة لخدمة جسد المسيح في كلّ مكان وزمان. لذا يجب أن نُفرِّق بين مصطلحي "الأدب المسيحي" و"الكتابات الآبائيّة"؛ فالأوَّل يشمل كلّ الكتابات التي وضعها كتَّاب مسيحيّون على مختلف المذاهب وفي مختلف الموضوعات. بينما الثاني هو ما دوّنه آباء الكنيسة (مَنْ حازوا على الإجماع الكنسي وفق الضوابط السابق ذكرها) من مواضيع للتعليم الكنسي والتقنين العقائدي، والدفاع عن منطوقات الإيمان الأولى.

من هذا المنطلق يمكننا أن نقول إنّ هناك:

آباء الكنيسة: وهو التعبير الشمولي والمُعبِّر عن الامتداد في حركة التدوين المسيحي المُنطلق من آباء الكنيسة الأولى، والناشِئ عن خبرة حيّة وعِلم روحي؛ ما بين العقائدي والحياتي، لخدمة الكنيسة، وهو الأقرب للتقليد السكندري المنفتح على كلّ العصور. خاصة أنّ المجمع الذي يُصلّيه الكاهن في اللّيتورجيّة القبطيّة، ليس مُغلقًا، فهو قابل للزيادة من خلال التقنين الكنسي للقديسين والآباء المُعلِّمين الجُدُد وفق ضوابط وضعها المجمع المُقدَّس.

آباء الكنيسة الأولى / الآباء الأُوَّل للكنيسة: وهم الذين وضعوا التحديدات العقائديّة للإيمان، وكانت كتاباتهم حجر الزاوية في الصياغات النهائيّة لقانون الإيمان في مراحله المتتابعة في الثلاثة مجامع الأولى (بحسب التقليد السكندري).

آباء البريّة: وهم الذين أخذتهم روح الشهادة لمناطق غير مأهولة ليتعبّدوا ليل نهار، وتأسَّست على أيديهم حركة الرهبنة، والتي مازالت تمد فروعها حتّى الآن في مختلف ربوع المسكونة.

الكُتّاب الكنسيين: هم كلّ من كتب من المسيحيين لشرح الإيمان أو للدفاع عنه أو لفهم النصوص الكتابيّة، وإن لم تحمل كتاباتهم الاتّزان العقائدي لتصبح كتابات مُعبِّرة بدقّة عن مفاهيم اللاّهوت.

الآباء الروحيين: وهم الآباء الذين يتقبَّلون الاعترافات ويعطون الإرشاد التطبيقي للحياة الروحيّة.

الآباء والمعاصرة

لقد تميَّز الآباء بسمة غاية في الأهميّة؛ إنّها ما يمكن أن نطلق عليه الآن: "المعاصرة". فلم يكن الآباء مُتغرِّبين عن عصرهم وما يحدث فيه، كما لم تستهلكهم قضايا العصر ومشاكله لتنحدر بهم إلى أسفل.

بل ولقد استبق الكُتّاب المسيحيين الأوائل عصورهم بطرح قضايا لم تكن موضوع بحث في تلك الأزمنة؛ مثل الإجهاض، الذي تناوله أثيناغورس في دفاعه الخامس والثلاثين مؤكِّدًا على حقّ الجنين في الحياة، مؤثـِّمًا مَنْ يستخدم عقاقير الإجهاض.

لقد كتب الآباء عن الزواج، البتوليّة، الحياة المسيحيّة، الأغنياء، المرأة، العدل، الحياة السعيدة، الأخلاقيّات، وحريّة الإرادة .. كما كتب القديس يوحنّا الذهبيّ الفم عن المسارح والأزياء وعلاقتها

بالأخلاق المسيحيّة. لذا يمكننا القول إنّ الآباء لم يألُ جهدًا في تناول أي من المواضيع التي مسّت مسيحيي عصورهم.

لقد خرج معظم الآباء إلى البراري ليتنقّوا من مجاذبات العالم المادي، وحينها استطاعوا أن يفهموا مأساة الإنسان المعاصر آنذاك، واستطاعوا أن يستشعروا مكمن الخطر وكيفيّة مجابهته. لذا فإنّ من المخاطر التي تحيق بنا اليوم هو انقسامنا إلى قسمين؛ الأوَّل لا يرى في الآباء سوى إرثٍ بالٍ من عصورٍ غابرة يجب أن نعبر عليه كما يعبر الزائر على القطع الفنيّة والأثريّة في المتاحف ليبدي إعجابه ثم ينتقل إلى قطعة أخرى. والثاني يرجع به الحنين إلى الماضي فيصير مُتغرِّبًا عن عصره وقضاياه وإشكالياته، فيصبح حديثه وكأنّه حديث الذكريات التي لا تُعالِج واقع الإنسان المعاصر.

لقد كتب القمُّص تادرس يعقوب ملطي في مؤلّفه "المدخل إلى علم الباترولوجي، بدء الأدب المسيحي الآبائي. الآباء الرسوليون" قائلاً: "لم تكن أقوال الآباء وسِيَرهم ورسائلهم وفكرهم يُمثِّل تُراثًا ثمينًا يُوضَع في بطون الكُتُب أو يُحفَظ في خزائن المتاحف والجامعات ليكون مادّة لدراسات فلسفيّة نظريّة، إنّما كان إنجيلاً عمليًّا حيًّا تخطُّه الأجيال بالروح القدس، شهادة لديمومة عمل الله الخلاصي المُستمر في كلّ جيل. هكذا اعتزّ الآباء بتراث السابقين لهم لا بكونه أدبًا روحيًّا لأجيال ماضية، وإنّما بكونه مُمثِّلاً لحاضرٍ حيّ وحياة واقعيّة صادقة عاملة في الكنيسة".

لذا من الضروري بمكانٍ أنْ نُدرِك أن بحثنا في كنوز الآباء لا ينفصل عن وعينا بواقعنا المعاصر، وما نستلهمه من الآباء نُقَوْلِبه في لُغة العصر لنُصِّدر خطابًا يُعبِّر عن الكنيسة التي تحمل في جعبتها جددًا وعتقاء.

يجب علينا أن نجمع ما بين المنظوريْن؛ التراثي والمعاصر، وأن نكون على استعداد للتجدُّد والمغامرة في التلامس مع إشكاليات العصر دون أن نقطع الخيط الذي يصلنا بهوّيتنا الإيمانيّة.

ولكن، هل عالج الآباء إشكاليات إنساننا المعاصر مثل؛ ثقافة الاستهلاك، تحديات الثورة الصناعيّة، الإلحاد السلبي، السطوة الإعلاميّة، التغيّرات السياسيّة، القضايا الحقوقيّة، الموازنات بين قيم التسامح والتغيُّر المجتمعي من خلال ثورات سلميّة لتفعيل الديموقراطيّة، عِلم الأجنّة، نقل الأعضاء، قيم الحداثة، التعدديّة الدينيّة والتعايش المشترك في قالب المواطنة، الهجرة، العولمة، عمالة الأطفال، التغيُّرات المناخيّة والاحتباس الحراري ...

لا أستطيع الادّعاء بأني قرأت كتابات الآباء جُملةً، لأجيب على هذا التساؤل، ولكني أعتقد أنّ تلك التحديّات هي وليدة ظرف تاريخي ومجتمعي وثقافي معاصر، وبالتالي لم تكن تحديّات في العصور الأولى للمسيحيّة، لذا أستبعد أن يكون الآباء تناولوا تلك الأمور بشكل مباشر. هنا ونستشرف دور الكنيسة المعاصر كامتداد طبيعي للآباء؛ منهم تأخذ خيط الإيمان لتحيك به إجابات لتساؤل الإنسان المسيحي المعاصر؛ إجابات ناتجة عن وعي عام؛ كتابي آبائي ليتورجي مُخلَّط في بوتقة الصلاة والتلامس مع الواقع، مع الأخذ في الاعتبار أن الأجوبة هي نتاج كنيسة ومجامع وصلوات ودراسات. لذا فالآبائي ليس هو المتفقّه في نصوص وتواريخ الآباء، ولكنّه السائر على خُطاهم، المُحاكي سيرتهم، الواعي بدوره المعاصر، المنفتح على قضايا وإشكاليات مجتمعه.

ومن التحديات التي تواجه مَنْ هم معنيون بالشأن الآبائي، سؤالٌ يفرض نفسه دائمًا: كيف نُحوِّل كلمات الآباء وتعبيراتهم وأفكارهم إلى لُغة حيّة معاصرة تجري على ألسنة عموم المسيحيين وبالأخص الشباب؟

كما يلوح في الأفق تساؤل أخر؛ كيف نستعيد لُغة التواصل مع الآباء في عصرٍ نحتاج فيه لتنمية وعينا بإعادة قراءة الماضي، وإن كان في التقليد ليس هناك ماضٍ وحاضر، بل إيمان حيّ ممتد فاعل في جسد المسيح؛ الكنيسة؟؟

لعلّ اهتمام بعض الشباب المنقوص بدور آباء الكنيسة قد يرجع إلى عدّة أمور منها؛ أنّ قيم الحداثة والليبراليّة الفكريّة قد طالت عقول البعض في فهمهم للكتاب المُقدَّس وبالتالي في فَهْم الإيمان المسيحي. وتحوَّل البعض إلى تقييم النصّ الكتابي بمقاييس النصّ الأدبي وتخلَّق ما يُسمّى بالنقد الكتابي، ودار الجميع في دائرة النصوص والحرف وتناسوا أنّ الإيمان معني بالروح، وأنّ الحرف في المسيحيّة هو ما دوّنته الكنيسة نتيجة ضرورات وتحديّات واجهتها لنقل خبر الإيمان كما هو. إنّ تلك القيم والأفكار المعاصرة تدفع الإنسان ليكون فكره هو مركز انطلاقه مُخضعًا كلّ شيء للشك حتّى يظهر عكس ذلك، وهو ما يفيد العالم ولكنّه يتيه الروح. من هنا تشكَّك الفكر الليبرالي في الآباء لا لشيء إلاّ لأنـّهم قادمون بقناعات الماضي التي يتوجّس منها الفكر اللّيبرالي.

ولقد تزامن عصر النهضة مع خروج حركات الإصلاح البروتستانتيّة أدّى إلى ما يمكن أن نطلق عليه "تحالف ضدّ الماضي"، ولأنّ الكنيسة الكاثوليكيّة في العصور الوسطى قد استخدمت بعض

النصوص الآبائيّة في سياقات مختلفة لخدمة مصالح زمنيّة، تولّد شعور باطني برفض التقليد الآبائي جُملةً، وظهر هذا الشعور على السطح من تنامي دور حركات الإصلاح في المجتمعات الغربيّة بعد ذلك.

إنّ من العومل التي تخلّق حراكًا آبائيًّا: الكرازة. فالكرازة تُحفِّز البحث في كنوز التراث الذاتي للكنيسة، وتلك الكنوز بدورها تُثري الكرازة وتعطيها فعاليّة طالما هي موجَّهة بالحكمة الإلهيّة العاملة في قلب الدارس والكارز معًا، وما أحوج العالم الآن إلى مَنْ ينتشله من تضارب الأفكار التي تتقاذفه في بحارٍ دونما ضياء. ومن الجدير بالذكر أنّ القديس إيريناؤس أُرسِل للكرازة في بلاد الغال (فرنسا حاليًا)، وقد تعلّم لغتهم حتّى يستطيع أن ينشر الإنجيل في تلك المناطق الوثنيّة آنذاك.

إنـّنا لم نأخذ الروح القدس
لكي نعيش منكمشين بالجبن،
بل لكي نتكلّم بجسارة

القديس يوحنّا الذهبي الفم

"يستحيل على المرء أن يبدأ في تعلُّم ما يعتقد أنـّه على علمٍ به"، تلك هي كلمات إبكتيتوس، والتي يضع بها أهم وأوَّل الخطوات التي يجب أن نخطوها على طريق المعرفة، وهي أنـّنا لا نعلم شيئًا بعد.

لقد طلب البروفيسور جورج هنري من طلبة معهد برينستون اللاّهوتي أن يذهبوا للمكتبة ويقفوا أمام مجموعة "نصوص آباء ما قبل نيقيه / نيقيه وما بعد نيقيه"، فقط لكي يتّضعوا. إذ وجدوا أنفسهم أمام ٣٨ مجلّدًا من الحجم الكبير من الكتابات المُتخصّصة لنفرٍ قليل من الآباء، ولا أعلم ماذا سيكون شعورهم إذا وقفوا أمام مجموعة مين Migne والمؤلّفة من ٣٨٢ مجلَّد من النصوص اليونانيّة واللاّتينيّة؟!

فلكي نفهم فكر الآباء يجب أن نُنحّي جانبًا كبرياءنا الذاتي واعتماديتنا على خبراتنا الشخصيّة وفهمنا الأحادي للأمور. فالمسيحيّة كما عاشها الآباء في ملئها، ليست كما يحياها الكثيرون الآن. إنّ المسيحيّة عند الآباء كانت هي الوصول إلى حالة « إنسانٍ كاملٍ » (أف٤: ١٣)، فهي لم تكن نمطًا سلوكيًّا مستقلاً عن دعوة عليا وغاية إسخاطولوجيّة تجتذبهم على الدوام. فالاكتمال في الثالوث كان قوّة الجذب العليا لكيانهم الذاتي (الشخصي) والجمعي (الكنسي) على حدٍّ سواء. لذا رأى القديس غريغوريوس النيسي أنّ المسيحيّة هي العودة بالإنسان التائه إلى الفردوس المفقود من خلال تلك الإمكانيّة الهائلة التي تركها الله في دواخلنا؛ وهي الصورة الإلهيّة.

إنّ نمو النزعة الماديّة المعاصرة كان له دور كبير في الانصراف عن الآباء الذين كانوا رمزًا للتجرُّد الإنجيلي في أبهَى صوره. ففي العصور الأولى كان الجميع منشغلاً بالإيمان لا بلقمة العيش. وللقديس غريغوريوس النيسي فقرة مشهورة في مقاله عن "لاهوت الابن" يُوضّح فيها مدَى شغف رجل الشارع العادي، في عصره، بمعرفة نتائج السجال اللاّهوتي السائد آنذاك؛ فالخبّاز بدل من أن يطلب منك المال، يتساءل عن طبيعة المولود وغير المولود، وهل الابن مساوٍ للآب، أو أدنى منه، في حين أن ما تحاول أن تعرفه منه، هو فقط ثمن الخبز!!

ويرى بونيفاس رمزي Boniface Ramsey في كتابه "البداية لقراءة الآباء" أنّ ذلك كان بسبب "الشغف بالحوارات الفكريّة والتي كانت جزءًا من النسيج الثقافي لمجتمعات البحر المتوسِّط آنذاك، ولكن أولاً وقبل كلّ شيء، كان ذلك نتيجة انشغالهم العميق بالخلاص". ويضيف: "إنّ كلمات مثل الهوموؤسيوس (المساواة في الجوهر) والفيسيس (الطبيعة) والهيبوستاسيس (الأقنوم) لم تكن كلمات تقنيّة في القرن الرابع فقد كانت بمثابة العُملة اللُّغويّة السائدة آنذاك، ولكنّها وصلت إلينا اليوم في إطار تقني يحتاج للكثير من الشرح والتفصيل".

إنّ هناك علاقة طرديّة دائمًا بين الأدب والحياة؛ فكلّما كانت الحياة عميقة جادّة مُهدّفة مُتحرِّكة كان الأدب المُعبِّر عنها جادًّا عميقًا قوي التأثير، وكلما هزلت الحياة وتسطّحت تسطّح معها الأدب وهزُل وانحطّ. لذا فإنّ كتابات الآباء كانت تعبيرًا عن حياة ديناميكيّة فاعلة في مجتمعات ديناميكيّة متفاعلة، فكانت كلماتهم تحمل بحارًا من المعاني لا تُستنفذ لأنــّها مأخوذة من كلمات وحياة المسيح بلامحدوديّتها. ولا سبيل لفهم كلمات الآباء دون العودة إلى الفطريّة الإيمانيّة والروحيّة قبل دخول تيار الأهواء، والمآرب الفرديّة الشخصيّة الضيّقة.

ولعلّ ظهور تيار أدبي في عصرٍ ما يقترن بردّة فعل داخلية تُترجَم كلمات وعبارات وصياغات. كانت ردّة فعل الآباء هي نتاج معاينتهم للثالوث وتلامسهم اليومي مع حركة الروح الذي يُفجِّر في دواخلهم جدّة الحياة. لذا لم تكن كتابات الآباء هي أطروحات فكريّة مُجرّدة لتزجية الفراغ، ولكنّها كانت رسالة يدفع بها الروح عبر أفواههم وأقلامهم إلى كلّ العالم.

إنّ الأدبيات المعاصرة هي أدبيات قصيرة تذهب مباشرة للحدث المراد إيصاله للقارئ دونما استرسال في الشرح. وهذا الاسترسال هو أحد السمات الأدبيّة لنصوص الآباء في معظمها، كما أظهرت

بعض الدراسات التي طرحت تساؤلات على الشباب عن سبب انصرافهم عن الآباء؛ فكان الاسترسال في الشرح أحد العوامل.

ولعلّ الاسترسال الذي يلحظه القارئ المعاصر لكتابات الآباء ناتج عن كون معظم تلك النصوص هي نتاج عظات ألقوها من على المنابر، ثم نقلوها مدوَّنة كما هي دونما تعديل. كما أنّ الآباء، كما يقول جون س. هيدليJohn C. Hedley: "لم يكتبوا مختصرات، فلقد بحثوا في النصوص الكتابيّة، وقارنوا بين الشهادات المختلفة، واختبروا التقليد، وواجهوا التعاليم الخاطئة".

على صعيدٍ آخر؛ إنّ عامل اللُّغة يمثـّل عائقًا لمَنْ يريد أن ينمّي معارفه الآبائيّة. فحينما كتب الآباء استخدموا اللُّغة اليونانيّة (الآباء الشرقيين) تلك التي كانت أنسب وعاء للتعليم المسيحي، فهي تتفرّد بكونها تحمل اتّزانـًا مدهشًا بين الفعل والفكر في مفرداتها وتعبيراتها.

إنّ اللُّغات المختلفة وإن كانت تعطي معنىً دقيقًا، إلاّ أنها تفتقر إلى حِسّ الكلمة ووقعها على الآذان وترجمتها إلى معانٍ جزئيّة. من أمثلة ذلك: كلمة لوجوس Λογος المحوريّة في تعليم الكتاب المقدّس ومن ثمّ الآباء، عن المسيح، والتي تُتَرجَم في العربيّة إلى "كلمة"، وفي الإنجليزيّة إلى "Word". إنّ تلك الكلمة لها مخزون في الثقافة اليونانيّة القديمة يبزغ حينما يلفظها المرء، بينما تبقَى كلمة ذات وقعٍ نمطي على الذهن العربي أو الغربي المعاصريْن، وذلك لتوقُّف ذلك الامتداد الثقافـي والمعرفـي لمدلولات الكلمة قبل المسيحيّة.

إنّ اللّهجة اليونانيّة التي كتب بها الآباء هي لهجة الكيني *Koine* وهي الحلقة الرابعة من حلقات تطوُّر اللُّغة اليونانيّة، إذ أنّ هناك ست حلقات في تطوُّر اللُّغة اليونانيّة وهي؛ اليونانيّة الأوليّة *Proto-Greek*، الميسينيّة *Mycenaean* (١٦٠٠ ـ ١١٠٠ ق م)، اليونانيّة القديمة *Ancient Greek* (٨٠٠ ـ ٣٣٠ ق م)، الكيني *Koine* (٣٣٠ ق م ـ ٣٣٠ م)، يوناني العصور الوسطى *Medieval Greek* (٣٣٠ ـ ١٤٥٣م)، اليوناني الحديث *Modern Greek* (١٤٥٣م ـ وحتّى الآن).

ولهجة الكيني هي بحسب معنَى الكلمة؛ اللّهجة العامّة، ومن مسمياتها أيضًا: اللّهجة السكندريّة، الآبائيّة، الهلّلينيّة، المقدونيّة، أو لهجة العهد الجديد. إنـّها بمثابة اللّسان العالمي الذي كان يتقنه العالم القديم. ومن الجدير بالذكر أنـّها نشأت أول ما نشأت في أروقة جيوش الإسكندر الأكبر، وتحت قيادة مقدونيوس والذي استعمر العالم المعروف آنذاك، ممّا خلّق احتياجًا للّغة عامة لكلّ رعايا الإسكندر في كلّ مكان.

لهجة الكيني مُشتقّة من الأتيكيّة *attic* (نسبة إلى منطقة أتيكا الجنوبيّة في اليونان والتي كانت تضم أثينا) ومُطعَّمة ببعض العناصر من اللّهجة الأيونيّة *ionic* (نسبة إلى الأيونيين وهم الأربع قبائل الرئيسيّة التي خرج منها اليونان) حسبما أعلن عالم اللُّغويات اليوناني الشهير هاتزيداكس G.N. Hatzidakis.

أخيرًا، يمكن أن نُجمِل الأسباب التي دعت قطاعًا كبيرًا من الشباب المعاصر لينصرف عن الآباء في النقاط التالية:

- الاسترسال في الخطاب الآبائي.
- الميل للتصوير الرمزي في التعبير عن الفكر المراد توصيله.
- انحسار الدور الكرازي للكنائس الرسوليّة مقارنة بالكنائس غير الرسوليّة، نظرًا لما عانته تلك الكنائس من اضطهادات متوالية استهدفت إيمانها.
- النصوص الآبائيّة لا تمسّ إشكاليات الإنسان المعاصر، بشكل مباشر، مع التحديّات المتجددة.
- انخفاض قيم القراءة في المجتمع بشكلٍ عام، وبالتالي انخفاض نسب القراءة الجادّة التي تتطلب جهدًا للفهم والتفاعل.
- تحوُّل القراءة إلى مادة تسلِّي دون البناء .. تحوُّلها إلى إحدى أدوات قتل الوقت وليس افتداء الوقت.
- ظهور مدارس فلسفيّة جديدة غير المدارس الفلسفيّة التي سادت في عصر الآباء، والتي تُقدّم أطروحات مغايرة؛ منها "الحداثة" و"ما بعد الحداثة" وأخيرًا الـ "سوبر حداثة".
- الاهتمام بالقراءات والدراسات النظريّة دون القراءات التي توجِّه الخبرة الشخصيَّة وتنميها وتصعد بها إلى مراقي الكمال.
- ظهور الكنائس غير الرسوليّة بما تُقدِّمه من طرح مخالف ومناهض لما قدَّمه الآباء في الكثير من الأوقات، وتعتمد في طرحها الروحي واللاّهوتي على تآلف مع المُتغيِّرات الثقافيّة حتّى الذوبان في بعض الأحيان، ممّا يجعها جاذبة للشباب.
- نمو النزعة الفرديّة في المجتمعات المعاصرة.
- نمو النزعة الماديّة كإحدى مقومات المجتمعات الصناعيّة الحديثة.
- عدم التفرُّغ الكافـي للدراسات الآبائيّة الجادّة لتقديمها في قوالب معاصرة.
- التقديم الأكاديمي للآباء دون مراعاة القاعدة العريضة من القرَّاء.

تاريخ نشر نصوص الآباء

بالرجوع إلى تاريخ ذكر الآباء القدامى، يكتب الدكتور ج. تكسرون J.Tixeront في مؤلَّفه "دليل إلى علم الآباء" *A Handbook of Patrology* فيقول: إنّ أوّل مَنْ وضع لائحة بأسماء الآباء هو القديس باسيليوس في مؤلَّفه "الروح القدّس" لكي يوثـّق لطرحه اللاّهوتي "ببراهين تستند على الآباء". إلاّ أن عمل يوسابيوس القيصري في مؤلَّفه تاريخ الكنيسة كان العمل المنهجي الأوَّل الذي يضم سيَّر الآباء والكُتـّاب المسيحيين وتعاليمهم حتّى منتصف القرن الرابع. ومنه أخذ جيروم الخيط فكتب كتابه الشهير "مشاهير الرجال" *De Viris Illustribus* في بيت لحم والذي يحتوي على ١٣٥ سيرة تنتهي بنهاية القرن الرابع (٣٩٢م). وقد كانت للقديس أغسطينوس، في رسالته الأربعين، مآخذ على كتاب جيروم لضمّه بعض الهراطقة في تأريخه. وتحت نفس العنوان أكمل جناديوس من مرسيليا التحقيق حتّى نهاية القرن الخامس الميلادي (٤٨٠م). وقد أضاف حوالي ٩٨ تعليقًا. وقد تسلّم العمل من بعده إيسيذوروس من أشبيليه Isidore of Seville وذلك في عام ٦١٨، ثم الديفونسوس من توليدو Ildephonsus of Toledo († ٦٦٧ م).

وتوالت الأعمال في العصور اللاّحقة ومنها ما قام به فوتيوس († ٨٩١ م) بطريرك القسطنطينيّة في القرن التاسع، وهو العمل الذي أسماه "مكتبة فوتيوس" *Photii bibliotectheca* وقد أورد فيه ٢٩٧ تعليقًا لكُتـّاب وكتابات مختلفة.

وفي عام ١٣١٧م قام عبد يشوع النسطوري مطران نصيبين بعمل قائمة نشرتها مطبوعات المكتبة الشرقيّة *Bibliotecha Orientalis* في جزئها الثالث. وبعد ذلك بقرنين من الزمان وبالتحديد في عام ١٤٩٤م قام الأب جون تريثميوس بكتابة ما أسماه النصوص الكنسيّة *Scriptoribus Ecclesiasticis* تناول فيه الكُتـّاب الذين ظهروا بعد العصر الآبائي المُقنَّن.

إلاّ أن المحاولة المنهجية الكاملة الأولى في العصر الحديث كانت بمبادرة اللاّهوتي الألماني يوحنا جرهارد (١٦٧٣م)، الذي طبع كتاب بعنوان "بترولوجيا" *Patrologia* وقد نُشر في عام (١٦٥٣م)، ومن وقتها أصبح هذا المصطلح: "الباترولوجي" مُعبِّرًا عن الدراسات التي تصدر في هذا المجال. ولكن العمل الذي قام به جاك بول مين Migne كان بمثابة فتح جديد في هذا المجال إذ قد نشر مجموعتيه (١٨٤٤م ـ ١٨٦٦م)؛ اليونانيّة PG (١٦١ مجلّد) واللاّتينيّة PL (٢٢١ مجلّد). وبعدها ظهرت المجموعة الهامّة

التي صدرت بالفرنسيّة تحت عنوان "المصادر المسيحيّة" *Sources Chrétiennes* والتي بدأ بنشرها جان دانيلو في باريس (١٩٤١م). ثم توالت الطبعات باللُّغات المختلفة منها طبعة "آباء ما قبل نيقيه (١٠ مجلدات) *The Ante-Nicene Fathers* / آباء نيقيه وما بعد نيقيه (٢٨ مجلّد) *The Nicene and Post-Nicene Fathers*" باللغة الإنجليزيّة والتي كانت نواتها طبعة "المكتبة المسيحيّة لما قبل نيقيه" *The Ante-Nicene Christian Library* والتي صدرت في إدنبره باسكتلندا (١٨٦٦م ـ ١٨٧٢م). كما ظهرت مجموعة "آباء الكنيسة" *Fathers of the Church* التي تطبعها جامعة واشنطن الكاثوليكيّة (١٩٤٧م) وهي مستمرة في النشر حتّى الآن ..

Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲉⲛⲓⲟϯ ⲛ̀ϯⲉ̀ⲕⲕⲗⲏⲥⲓⲁ :	السلام لآباء الكنيسة
ⲡⲓⲟⲩⲱⲓⲛⲓ ⲉⲧⲗⲁⲙⲡⲣⲟⲥ	النور المشرق
ϧⲉⲛ ⲛⲓⲁⲩⲣⲏϫⲥ ⲛ̀ϯⲅⲛⲱⲥⲓⲥ :	من آفاق المعرفة
ⲙ̀ⲡⲛⲉⲩⲙⲁⲧⲓⲕⲏ ⲉⲧⲱⲛϧ	الروحيّة الحيّة
Ⲫⲓⲁⲣⲟ ⲉⲧⲙⲏⲣ ̀ⲉϧⲟⲩⲛ :	النهر المتصل
ⲉ̀ Ⲫ︦ϯ︦ ⲛ̀ⲥⲏⲟⲩ ⲛⲓⲃⲉⲛ	بالله كلّ حين
ⲡⲓⲙⲏϣ ⲉⲧⲟⲩⲉϩ ⲛ̀ⲥⲁ ⲡⲓϩⲓⲏⲃ :	الجمع المرافق للحمل
ϧⲉⲛ ⲙⲁⲓ ⲛⲓⲃⲉⲛ ⲉϥϣⲉ ⲛⲁϥ ⲉ̀ⲣⲟϥ	أينما ذهب
Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲏⲉⲧⲁⲩϣⲱⲡ ⲉ̀ⲣⲱⲟⲩ :	السلام لمن قبلوا
ⲙ̀ⲡⲓⲛⲁϩⲃⲉϥ ⲛ̀ⲛⲟⲩϯ	النير الإلهي
ⲁϥⲁⲓⲧⲟⲩ ⲛ̀ⲟⲩⲱⲓⲛⲓ ⲛ̀ⲗⲁⲙⲡⲣⲟⲥ :	فصيّرهم نورًا باهرًا
ϧⲉⲛ ⲛⲓⲙⲁ ⲛ̀ϣⲱⲡⲓ ⲛ̀ⲧⲉ ⲛⲁ ̀ⲧⲫⲉ	في مساكن السمائيين
Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲉⲛⲓⲟϯ ⲛ̀ⲁⲅⲓⲟⲥ :	السلام لآباءنا القديسين
ⲛⲏⲉⲧⲁⲩⲙⲟⲩϯ ϧⲉⲛ ϯⲙⲉⲑⲙⲏⲓ	مَنْ نادوا بالحقّ
ϯⲙⲉⲑⲙⲏⲓ ⲡⲉ Ⲡⲓⲗⲟⲅⲟⲥ :	والحقُّ هو الكلمة،
ⲡⲉⲛⲥⲱⲧⲏⲣ Ⲕⲩⲣⲓⲟⲥ Ⲓⲏⲥⲟⲩⲥ	مُخلّصنا الربّ يسوع
Ⲛⲟⲩⲥⲁϫⲓ ⲛⲁⲩⲟⲓ ⲙ̀ⲫⲣⲏϯ :	فكانت كلماتهم
ⲛ̀ϩⲁⲛⲕⲉⲣⲁⲍ ⲙ̀Ⲡⲛⲉⲩⲙⲁ	معاول الروح
ⲉⲩϩⲉⲓ ⲉϫⲉⲛ ⲛⲓⲓ̀ⲇⲱⲗⲟⲛ :	تهوي على أوثان
ⲛ̀ⲛⲓⲥⲃⲱⲟⲩⲓ̀ ⲛ̀ⲧⲉ ⲛⲓϩⲉⲣⲉⲧⲓⲕⲟⲥ	تعاليم الهراطقة
Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲏⲉⲧⲁⲩϭⲓⲙⲱⲓⲧ :	السلام لمن قادوا
ⲙ̀ⲡⲓϫⲟⲓ ⲙ̀ⲡⲓⲛⲁϩϯ	سفينة الإيمان
ϧⲉⲛ ̀ⲑⲙⲏϯ ⲛ̀ϩⲁⲛⲣⲱⲟⲩϣ :	وسط لُجج
ⲉⲩϣⲏⲕ ⲟⲩⲟϩ ⲉⲩ̀ϣⲧⲟⲣⲧⲉⲣ	عميقة ومضطربة
Ⲟⲩⲟϩ ⲁⲩⲁⲙⲟⲛⲓ ⲙ̀ⲙⲟϥ :	ووصلوا بها
ϣⲁ ⲡ̀ⲗⲩⲙⲏⲛ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡ̀ⲟⲩϫⲁⲓ	إلى ميناء الخلاص
ⲉ̀ⲫⲙⲁ ⲉⲧⲉ ⲡⲉⲛⲥⲱⲧⲏⲣ ⲛ̀ϧⲏⲧϥ :	حيث المُخلّص
Ⲕⲩⲣⲓⲟⲥ Ⲓⲏⲥⲟⲩⲥ Ⲡⲓⲭ̅ⲣⲓⲥⲧⲟⲥ	الربّ يسوع المسيح
Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲓϭⲁⲗⲁⲩϫ :	

ⲛⲏⲉⲧⲁⲩⲧⲁϫⲣⲟ ⲉ̀ϩⲣⲏⲓ ⲉ̀ϫⲉⲛ
ⲡ̀ⲕⲁϩⲓ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡⲓⲅⲛⲱⲥⲓⲥ :
ⲛⲉⲙ ⲡ̀ⲧⲁϫⲣⲟ ⲛ̀ⲛⲟⲩϯ

السلام للأقدام
التي رسخت في
تربة المعرفة
واليقين الإلهي

Ⲟⲩⲟϩ ⲁⲩⲣⲱⲧ ⲛⲁⲛ ⲉ̀ⲃⲟⲗ :
ⲛ̀ϩⲁⲛⲟⲩⲧⲁϩ ⲉⲩⲛⲟⲧⲉⲙ
ⲉⲩⲑ̀ⲣⲉ̀ⲡϩⲏⲧ ⲙ̀Ⲫϯ :
ⲟⲩⲛⲟϥ ⲟⲩⲟϩ ⲣⲁϣⲓ

فأنبتت لنا
ثمارًا شهيّة
تبهج وتفرح
قلب الله الآب

Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲓⲙⲁⲛⲉ̀ⲥⲱⲟⲩ :
ⲛ̀ⲧⲉ ϯⲙⲉⲑⲙⲏⲓ ⲛⲏⲉⲧⲁⲩⲧⲁϫⲣⲟ
ⲛⲁϩⲣⲉⲛ ⲛⲁϣⲁⲗ ⲛ̀ⲛⲓⲟⲩⲱⲛϣ :
ϧⲉⲛ ⲟⲩϫⲟⲙ ⲛⲉⲙ ⲟⲩⲧⲁϫⲣⲟⲛ̀ϩⲏⲧ

السلام لرعاة الحقّ
الذين صمدوا
بقوة وثبات
أمام أنياب الذئاب

Ⲛ̀ⲧⲟⲩⲉⲣϫⲓⲛⲓⲟⲣ :
ⲙ̀ⲡⲓⲟϩⲓ ⲛ̀ⲧⲉ Ⲡⲟ̅ⲥ̅
ϣⲁⲛⲓⲙⲁⲛ̀ϣⲁⲛϣ :
ⲙ̀Ⲡⲛⲉⲩⲙⲁ ⲛ̀ⲉⲩⲑⲏⲛⲓⲁ

ليعبروا
بقطيع الربّ
إلى مراعي
الروح الخصبة

Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲏⲉⲧⲁⲩϣⲱⲡⲓ :
ⲛ̀ϩⲁⲛϧⲉⲗⲓⲃϣ ⲛ̀ⲧⲉ ⲛⲓⲣⲱⲙⲓ
ⲟⲩⲃⲉ ⲛⲓⲥⲁϯ ⲛ̀ⲧⲉ ⲛⲓϩⲉⲣⲉⲥⲓⲥ :
ⲛ̀ⲧⲟⲩⲉⲣⲛⲁϣϯ ⲙ̀ⲡⲕⲁϯ ⲛ̀ⲧⲉ ϯⲙⲉⲑⲛⲟⲩϯ

السلام لمن صاروا
دروعًا بشريّة
أمام سهام الهرطقة
لتحمي فهم اللاّهوت

Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲏⲉⲧⲁⲩⲙⲉⲛⲣⲉ :
ϣⲁ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ⲉ̀ⲡϧⲁⲉ̀
ⲁⲩϫⲱϣ ⲛ̀ⲧⲟⲩⲁⲅⲁⲡⲏ ⲙ̀ⲫⲣⲏϯ :
ⲛ̀ϩⲁⲛ ⲥ̀ⲛⲟϥ ϧⲁ ϭⲁⲗⲁⲩϫ ⲙ̀Ⲡⲟ̅ⲥ̅

السلام لَمَنْ أحبّوا
حتّى المنتهى
فسكبوا حبّهم دمًا
عند أقدام السيِّد

Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲏⲉⲧⲉ ⲙ̀ⲡⲉ ϩⲉⲗⲓ :
ⲛ̀ⲛⲓⲁⲩⲧⲟⲕⲣⲁⲧⲱⲣ ϫⲱⲟⲩϫ ⲙ̀ⲙⲱⲟⲩ
ⲟⲩⲇⲉ ⲛⲓⲱϣ ⲛ̀ⲛⲓⲙⲏϣ :
ⲟⲩⲇⲉ ⲛⲓϩⲟⲣⲓⲥⲙⲟⲥ ⲛ̀ⲛⲓⲥⲩⲛⲁⲅⲱⲅⲏ

السلام لمن لم تثنهم
تهديدات الأباطرة
ولا صرخات الجموع
ولا قرارات المجامع

Ⲟⲩⲇⲉ ⲛⲓϣⲉⲛⲕⲟⲩⲣ ⲛ̀ⲛⲓⲧⲁⲗⲉⲡⲱⲣⲟⲥ :
ⲟⲩⲇⲉ ⲛⲓⲥⲏϥⲓ ⲛ̀ⲛⲏⲉⲧϭⲟϫⲓ
ϧⲁ ⲟⲩⲛⲁϩϯ ⲁⲩϭⲓⲧϥ :
ⲟⲩⲟϩ ⲁⲩⲧⲏⲓϥ ⲛ̀ⲱⲛϧ

ولا لطمات الأشقياء
ولا سيوف المضطّهدين
عن إيمانٍ تسلّموه

وسلّموه حيًّا

السلام لِمَنْ لم تنتشب
أرجلهم
في فخاخ العالم
بل كسّروا بالنعمة
كلّ فخاخ إبليس

Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲏⲉⲧⲉ ⲛⲟⲩϭⲁⲗⲁⲩϫ
ⲙ̀ⲡⲟⲩⲧⲟⲣⲧⲉⲣ :
ⲉ̀ϧⲟⲩⲛ ⲉ̀ⲛⲓⲫⲁϣ ⲙ̀ⲡⲓⲕⲟⲥⲙⲟⲥ
ⲁⲗⲗⲁ ϧⲉⲛ ⲡⲓϩ̀ⲙⲟⲧ ⲁⲩⲕⲱϣ :
ⲛ̀ⲛⲓⲫⲁϣ ⲧⲏⲣⲟⲩ ⲙ̀Ⲡⲓⲇⲓⲁⲃⲟⲗⲟⲥ

وحلّقوا مع
جند الملائكة
كخدّام جدد مصطفين
حول عرش الله

ⲟⲩⲟϩ ⲁⲩϩⲱⲗ ⲉ̀ⲡ̀ϣⲱⲓ :
ⲛⲉⲙ ⲛⲓⲥⲧⲣⲁⲧⲓⲁ ⲛ̀Ⲛⲓⲁⲅⲅⲉⲗⲟⲥ
ⲙ̀ⲫ̀ⲣⲏϯ ⲛ̀ϩⲁⲛⲣⲉϥϣⲉⲙϣⲓ ⲙ̀ⲃⲉⲣⲓ :
ⲉⲩⲟϩⲓ ⲙ̀ⲡ̀ⲕⲱϯ ⲙ̀ⲡⲓⲑⲣⲟⲛⲟⲥ ⲙ̀Ⲫ̅ϯ̅

السلام لساكني
ملء مجد القيامة
معلنين لنا رجاء
القيامة في الثالوث

Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲏⲉⲧϣⲟⲡ :
ϧⲉⲛ ⲫ̀ⲙⲟϩ ⲙ̀ⲡ̀ⲱⲟⲩ ⲛ̀ϯⲁⲛⲁⲥⲧⲁⲥⲓⲥ
ⲉⲩⲟⲩⲱⲛϩ ⲛⲁⲛ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ⲛ̀ⲧ̀ϩⲉⲗⲡⲓⲥ :
ⲛ̀ϯⲁⲛⲁⲥⲧⲁⲥⲓⲥ ϧⲉⲛ ϯⲧⲣⲓⲁⲥ

اطلبوا من الرب عنّا
يا آباء الكنيسة
ليغفر لنا خطايانا
ويهبنا عِلْم الروح

Ⲧⲱⲃϩ ⲙ̀Ⲡ⳪ ⲉ̀ϩ̀ⲣⲏⲓ ⲉ̀ϫⲱⲛ :
ⲱ ⲛⲓⲓⲟϯ ⲛ̀ϯⲉⲕⲕⲗⲏⲥⲓⲁ̀
Ϩⲓⲛⲁ ⲛ̀ⲧⲉϥ ⲭⲁ ⲛⲉⲛⲛⲟⲃⲓ ⲛⲁⲛ ⲉ̀ⲃⲟⲗ :
ⲟⲩⲟϩ ⲛ̀ⲧⲉϥϯ ⲛⲁⲛ ⲛ̀ϯ̀ⲥⲃⲱ ⲙ̀Ⲡⲓⲡ̅ⲛ̅ⲁ̅

* قام بترجمة النص إلى القبطيّة ومراجعته بعض الآباء الأحبّاء بالدير، لهم جزيل الشكر.